

الديوان

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد ابراهيم عبدالقادر المازني

الطبعة الرابعة



Bibliotheca Alexandrina



0109123



التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر
قطاع النشر

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / (أحمد) محمد شعراوي

رئيس قطاع النشر والتوزيع

سعاد فريد

مهندسين

٢٠٠١ : ٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة .

ت : ٣٥٥١٥٩٩

ت : ٣٥٥١٨١٨ / ٣٥٥١٨١٠ / ٨١٠

فاكس : ٣٥٤٤٨١١ - ص ب ١٤ رقم بريد ١١٥١٦

الدُّعَاةُ

(في الأدب والنقد)

لمؤلفيه

عباس محمد العقاد إبراهيم عبد القادر المازني

الطبعة الرابعة

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض في احاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواعى للكتابة فى اصوله وفنونه ، اخصها الامل فى تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحدرد عليه من الانتكاس لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلى الاقلام المغموذة والمأرب المتهمة الى حظيرة . وكتابنا هذا مقصود به مجازاة ذلك الامل وتوفى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة اجزاء (١) . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المنهج الجديد فى الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المنهج فى بضع السنوات الاخيرة وراوا بعض آثاره وتهيأت الاذهان الفتية المتهدمة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابنا ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو ان تكون فيه موفقين الى الافادة

(١) لم يظهر من الديوان فى النقد والادب الا جزاءان طبع اولهما فى يناير ولانيتها فى فبراير سنة ١٩٢١ واميد طبعهما بعد شهرين

مسعدين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه -
انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط
بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصرى
عربى : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من
تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح
الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة .
ومصرى لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان
لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب
منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث في اعم مظاهره الا عربيا
بحثا يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة
اصناما عبت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر
من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلهمنا
اكثرنا ان نقدم تعظيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادئ
الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها
بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان
لاقمارها . فان اصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسينا بهذه
القدمة الوجيزة بيانا .

شوقي في الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضججات في البلد ، لا استنخاما لشهرته ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فان أدب شوقي ورصفائه من اتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففا من شهرة يزحف اليها زحف الكسبيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضمن الشحيج ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طي الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يقمعهم لم يبالوا أن يطبق الملا الأعلى والملا الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم رقة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وقدنا لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الاخلاقية من كل انسان وذهب به مذهبها يعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى أعلى مقام السمعة الادبية واهيئة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشتري السنة السفهاء ويكم افواههم ، فاذا استطاع أن يقيم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول

والزموه فى مناسبه وغير مناسبه وبحق أو بغير حق فقد تبوا مقعد
المجد وتسلم ذروه الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ،
وسحفا للمقلده والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وبنا للخجل
والحياء ، فان المجد ساعه تقتنى ولديه الثمن فى الخزانه ، وهل
للناس عقول ؟ ؟

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقى ممن
لا يمدح الناس الا ناجورا . فقد علم الخاصه والصامه شأن تلك
الخرق المنتنه نعى بها بعض الصحف الأسبوعيه . وعرف من لم
يعرف انها ما خطقت الا لثلب الأمراض والتسول بالمدح والدم وان
ليس للحشرات الادمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء
وذوى المآرب والحزازات . خبز مسموم تستمره تلك الجيف التى
تحركها الحياه لحكمة كما يحرك الهوام وخشاش الأرض . فى بلد
لو لم يكن فيه من هو شر منهم لما تواروا جوعا أو تواروا عن العيون .
هذه الصحف الأسبوعيه وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابها تكيل
المدح جزافا لشوقى فى كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى
يظهر للناس بقصيده تؤثر ، أو اثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل
الأسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيده جديده والا
فالقصائد القديمه المنسيه فى بطون الصحف ، وان لم يكن شعر
حديث ولا قديم فالكرم والأريحيه والفضل واللوعيه ، وان ضاقت
أبواب الدعاء والأطراء فقصيده أو كلمه ينشرها شاعر آخر فيستطال
عليه بالشم ويمر بالتقصير من قدر شوقى والتخلف من شأوه .
وهكذا حتى يرح الخلفاء وانهتكت الدسيسه . والعجب ان يتكرر
هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج الى ان يفهم كيف
يحتال شوقى وزموره على شهرتهم ومن أى ربح نفخت هذه
الطبول .

وشرفاء الناس كافة يشترأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة
ويعلمون انها آفة واى آفة : مدحها نعمة ، وذمها نعمة ، وتقييمها

وتقدمها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى .
فانه يعتسدها آلة شرف واحدودة حسنة فهو يغمس نفسه في
تقريفها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب عجاجات من
أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية في مثل ثروته بصر به
يمد يده بالسلام الخفى لاوثك الأوباش في خلوة من خلواته لراها
نقيصة يخزى لها ويود أن تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء
بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية
وشمم افذاذ المبقرية . فاما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل
الاعمال ، وان يدعى الناس الى المحافل لجمد التسول كما يدعون
لحمد الاحسان والمروءة وان يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الأعراض
كما يحتفى بمهلبى الأرواح وهداة العقول ، وان يؤيد تغاية المجتمع
وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وافراد المصور ، فتلك الهاوية التى
لا يبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها !!
شعراؤها - الشعراء في كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال
الاسمى لا يرضون بما دون غاية الفسيات مطمحا لعجابهم
وقبله لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق اسجانيين
بهم ضمنا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزدا
. . . الا انه والله للعسار وشر من العار . ولقد استخف شوقى
بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخر
الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقتيه حتى
يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده اجرة
سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل في أوربا لما قدر أن يمكث
بعدها أسبوعا واحدا في بيثة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مفتتها
أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ليكونن بلدنا هذا يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء ،
ولا يصد المرء ان يخلع فيه هاريا الا اتقساء طوارىء الجو وعوارض
الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى
 هم يستنكف في سبيل بغيته واى باب لا يطرقه تقربا الى طلبته .
 والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجرفاء قديم عريق ورد به
 كل مورد واذله عما ليس يذهل عنه بصير اريب ، وليس المجال
 منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر
 هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . اما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم .
 نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد في مركز
 امكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان اشبه بملحق ادبى في بلاط امير
 مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه باصحاب المؤيد واللواء
 والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل
 عليه بالتقريظ والتهليل وتحاشى ان توسع صفحاتها لنقده كما
 توسعها لنقد غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رايت فيها
 مئات المقالات في نقد الادباء المشهورين كتابا كانوا او شعراء ولا ترى
 اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثنى مقالتين او ثلاثا
 بدا بها المويلحى نقده في صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ،
 وهذا ادعى الى الريبة ، وكان في امانة شوقى وموظفين آخرين
 بالبلاط هبات محبوسة على اقلام الكتاب والادباء فكان شوقى
 يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العسلم بالادب
 ويمهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ويلغظوا في
 المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا اسماءهم واحدا
 واحدا واكثرهم احياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه
 لمشاركتهم اياه في العادات الخصوصية والمناذات الليلية ، وهم غير
 قليل ، ومن اعتسأدوا ان يرتبوا المواهب على حسب الوظائف
 والالقب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك :
 اولهم محمود سامى باشا البارودى (لانه باشا هتيق) وثانيهم
 اسماعيل صبرى باشا (لانه احدث عهدا بالباشوية والوزارة)
 وثالثهم احمد شوقى بك (لانه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك

أبراهيم (لأنه أحرز الرتبة أخيراً) وبنى ذلك خليل أفندي مطران
(لأنه حامل نيشان) فطائفة الأفندية والمشايع وهلم جرا كأنما
يرتبونهم في ديوان التشريفات لا في ديوان الآداب !!! فبذلك وما
شاكله اعتاد الناس أن يسمعوا اسم شوقي مشغوعاً بأفخم الألقاب
غارقاً في صيغ الأطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور
اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصيغ في كل
مرة يذكر فيها اسمه . ففي كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب
وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعري
ما ضرورة هذا التكرار كله أن كان مفهوماً بذاته ؟! ولما رسمت
هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشبهاء العامة ومن يجاملون
السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها... ولم لا يصدقونها ويرددونها
وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم إنما يعرفه
بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟! فإن كان في الأمر موضع للعجب فهو
أن نسمع ثناء متكرراً ولا نسمع نقداً... مع أن الأفرار في الثناء
أحجى أن يغوى بالمنافسة ويكثر من النقاد . ومتى علمت صلة
السكوت فقد زال موضع العجب .

وأظن السن قد فعلت فعلها في نفس هذا المقلب بمرض الصيت
فغلبه الشك وزاده شحاً وقلقاً فأصبح لا يقنعه أن يعلى بالدهان ،
ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على
الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى
باسم ، ولا تقرن إلى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة
الأجادة معروفة !! وما أطول عذابه أن ليج به هذا الوسواس !! وأن
الحنّة تستدر الرحمة ولكن أرحم الناس خليق أن يضحك ممن
يخال أنه يعظم بطن الطبيعة ويسد الأذان ويضيق رجب الفضاء
بالأجرة .

ولو شئنا لآخذنا من كلف شوقي بتواتر المدح دليلاً على جهله
بأطوار النفوس فإن الأذان أشد ما تكون استبعاداً لقبول الدم إذا

شجعت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النعمة . واذا تعود الناس ان يسموا ضربا واحدا من الكلام عن اسنان تاقوا الى سماع كلام منه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افترطت في محاباته ، فهل يدري شوقي انه يؤجر اذنا به على النبل منه حين يبذل الاجر على المبالغة في مدحه ؟ انه لا يدري ولا يبرىء المريض ان يدري بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقي ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن اسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن اساليبهم المستهجنة ياسا من صلاحها في هذه الايام . اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموء على الناس اقدارهم الا ريشما تنكشف اسرارهم . ونقول لشوقي ان سنة الله لم تجر بان يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بان يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكره ان يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بان يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا ابرد عليها وغرة قيفلها . وانه ليلد لنا ان تكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل في غرض من الاغراض فانها لذة نادرة في هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان ابلغ ما يكون العيب اذا كان قاشيا ، واضر ما يكون اذا كان متخذنا نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الامر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان الدوق والتميز اذا اختلا لم يكن اختلالهما في الادب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدي الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح في تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شيء ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الامم تختلف ما تختلف في

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه الى فرق واحد : هو الفرق في الحالة النفسية أو بالحرى الفرق في الشعور وفي صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من اعم انواع الاصلاح واعمقها . وسنتناول شعر شوقي قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا في تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى القراء أننا نلفظ له البلاغ ونصحه صخا شديدا . وكذلك ينبغي أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالمقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الأفواه وتسخير الماجورين . على أننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفي غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداواة على القارئ ليقتنع بما نقول فأننا لا نسأل احدا اقتناعه . ومن كان يحتكم براهه الى غير الحجة المقاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاما . وانا لبادئون : -

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال ان قصيدته في رثاء فريد من خسارة قصائده . فانها في مستوى أحسن شعره الأول والآخر ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لَهتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجة في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضي عهد ركافة في الأسلوب وتعثر في الصياغة تنبوه الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر ان يوفق الى جملة مستوية النسق او بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذب الأفواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لنُدرة الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة . فاذا قيل ان هذه القصيدة يتلوها القارئ « كالماء الجاري » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالأجادة فليس للأجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضى الجيل الفاتت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة واخرجت المطابع مئات الكتب التي

صاغها اقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من
مالوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الأسفار
الأجنبية أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ
ومعنى الاقتدار الفنى أو الادبى . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت
على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارئ
أن يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارئ المطلع أن يجسد المعنى حتى
يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقى عند هذا الجيل الناشئة
من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لنبحث عما
وراءها .

ولهذا طفق يلتقى اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة
ذلك الصدى ، وطفق أذكىاء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة في
ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت
الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا اصاب شوقى » ؟
ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل اليهم انهم كانوا يسمعون
منه خيرا من هذا الشعر ، وقد يعززون الاختلاف الى كلال التسيخوخة
وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون
به على الذكرى ، وحديثه الذى يفصيون أنفسهم على استحسانه فلا
يقدرّون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الامس هو شوقى
اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلسة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق
الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب
في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقى محله الأول مع انحذار شعره
في نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعصاة التى لم تتغير منذ
قدروه للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما
وتوقى واتسع اطلاعه . وقد جمّد شوقى في مكانه لأنه جعل اطراء
الناس غاية فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس
أن القارئ يرتقى في الاختيار أضفاف ما يرتقى الشاعر في الاداء
والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فان اخصب أيام

الشعر أيام الشباب . وإذا ارتقى فانما يكون ذلك باحثاث الطبع
وإدمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من
الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة
لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد أحس شوقى بالتغير من حوله فأده أن يستدركه وأعيته
الزيادة في سن التقهر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزداد ترويج
السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته
في فريد وقرىء له في نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال :
تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت ...

فلننظر اذن فلسفة الموت التي استنبطتها حكمة شوقى :

تعود إليها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم
تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ما هو أخس من بضاعتهم
وأبحس من فلسفتهم - كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان
والمكايز اذ ينادون في الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ،
الذي عند الله باقى ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا
التقاء » الخ ... الخ .

تلك اقوال الشحاذين وهذه اقوال (امير) الشعراء .

كل حى على المنية غدا	تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرنا فقرنا	لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم	غير باقى مسائر وأبادى

الخ ... الخ .

وما خلا هذه المعطيات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار
بوترع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه أخط من ذلك معدنا وأقل
طائلا وأفشل مضمونا . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق
التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و $2 + 2 = 4$ » وهلم
جرا . وأكثره اتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه وإثباته

سواء او بيت حذفه افضل ، مثل اخباره بان جر النمش في مركبة
او حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زينت جلالا منذ كانت ولا على الاجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذى ما احسب احدا يمر بقبر
فيذكره الا انقلب الاعتبار والهبة في نفسه هزوا وعبثا . وذلك
حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو علم الحق او منسار المساد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الاخرية :
« انه منسار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق
الآخرة لئلا يضل احدهم النهج او يصطدم بصخرة في دروب
الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الاجل بهم ايقاظا ونياما
كانما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها اجل لا ينسام بالمرصاد

ومثل تبئسه من رجعة الموت الى اهله وتخطئته الذين يزعمون
غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة
خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ
الناس يوما من بحثها وتقليب وجوها والتنقيب عن اسانيدها
وشواهدا حتى جاء شوقي ففض الخلاف ببتيه هدين .

سر مع العمر حيث شئت تؤين

وافقد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذى زعموه

في قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان اهل الميت اذا مات في برلين او لندن او الهند
لا يزالون يترجون يوم اوبته ، ويعدون ايام غربته ، وكان العلماء في

كل قطر وبلد يتساءلون أمن مات غريباً عن دياره أيوب إلى أهله
يوماً ناضر الصفحة متהל الجبين ممتاً بالعافية أو لا أيوب ؟ فكان
قريق منهم يقول « نعم » وقريق يقول « بل لا » إلى أن جاء شوقي
فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا أيوب » فانحسم الأشكال وقطعت
جهيزة كل خطيب :

قال ناقد أدیب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه
قائل المثل العامي « اعطني عمراً وارمني في البحر » وانه كان أسوأ
منه تمبيراً وأقل ظرفاً اذ يخاطب القارئ بقوله « أفقد العمر » وذلك
العامي يتلطف أن يجبه الناس بهذا الخطاب وتقول : أن توارد
الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فإن من
يتجشم لأجل الإنسانية أن يفرض على هذه المسائل العويصة ويسهر
الليالي في قض مفلقاتها وحل مشكلاتها لتحقيق بأن يتجاوز له الناس
من حسن المخاطبة ولا يكلفوه أن يابه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد إلى ما كنا فيه من ثقل أبيات شوقي التي لم يرد في
فلسفة الشحاذين مثلها ... فمن هذه الأبيات نبا عجيب فحواه أن في
العالمين نعشا واحداً تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستريح المولى يوماً وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فإن لم يكن يعنى هذا ويرغم أن الأمم لا تملك منذ وجدت غير
نعش واحد تنقل عليه موتاهما فسبحان من يعلم مراده . وإلا فإن
كان يعنى أن هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى
وتجدد فأى شيء لا يمكن أن يقال فيه ذلك ؟؟ أية مطيعة لا تنقل
العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال أى إنسان لا يقول
اليوم أو بعد مائة جيل أنه ركب مركبة فرعون ونام على سرير
قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجاناً وطوت من ملاعب وجياد
شاعر عصرى ولا شك !! ألا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننا

نخشى أن لا يكون شوقى قد ذكر الكرة الا ليذكر بعدها الصولجان
والملاعب والجيساد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه ،
فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق
بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها
وأعجميها . وانت اذا نقلت هذا البيت الى آية لغة لم يكن معناه الا
هكذا : « هذه القبراء اسقطت من ايدى الملوك قضبا كثيرة ودثرت
ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وأبادت خيلا لا تحصى » -
فما أشبه الحكماء بالمفرورين ان كانت ثروة كهذه تقع من نفس أحد
موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صباحا
وتنحى لمنجسل حصصا
تلك حمراء فى السماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجسلاد

اليوم لا نخشى بفتة الاجل فى كل حين !! قالشمس لا تخرج بدم
قتلاها الا حيث تطلع صباحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء . اما
ان طلعت فى الأرض فهذا شئ آخر) والقمر لا يكون منجلا حصصا
الا فى أيام الالهة أو المحاق وفيما عدا هذه الاوقات لا قتل ولا حصا
فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربى فلا
تصدقوه فان موته باطل ...

الا أن شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجننها على لغة
العرب الا زغل الصناعة لا جزى الله صانعها خيرا . جعلوا التشبيه
قاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب
صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات
المشبه به كان الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكان الناس فقدوا
قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج

معقوف فطلبوا له شبها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ،
لأنه ان يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه
وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو
وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف
النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم
هو كالخلخال ثم رأوا ان لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق
زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فاحبوها وشيخوا
بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام . واقتن قوم فقالوا هو
كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بدا
يهتك من انواره العنفسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم
نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟ هلر
فى هلر . وجاء شوقي فقال انه منجل يحصد الأعمار فاخطا حتى
التشبيه الحسى لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل
فحسب ، وأما فى سائر الأيام فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى
حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والفبار الذى على صفحتها دوران الرحي على الأجساد

وذلك من قول أبى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقتصر
للطحن رحي وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده
الاستطراد ، فعر على شوقي الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحي . عند
هذا يركد العقل ويجم الكلام .
ولم أفهم البيتين الآتين بعد قوله : « تلك حمراء في السماء
.. الخ »

**ليت شمري تعمدنا وأصرا
أم اعاننا جنسية الميلاد ؟
كذب الأزهران ما الأمبر الا
قدر رائج بما شاء غدا**

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جنسية
الميلاد وما الفرق بينهما ؟؟ اريد أن يطبق على الأزهرين المسادة
القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟؟ وفيهم كذبا وكيف
يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما
للقدر الرائع الغادى ؟؟ وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد الا رواج
القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على
شاعر الانس والجن فلعل هذه من آيائه التي صنعها لآخواتنا الجن
واختصم بها دوننا .

ويقول في نعش فريد او حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لها الزمام لجاءت

وحدها بالشهيد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهي مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقي
ولا كما أراد التاريخ والأثر . وإما معنى البيت فيقول شوقي ان
نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسمى وحده الى مصر !!
فله ما أقدر رائي الشموس على احالة الجليل مضحكا والتقديس
زراية : نعش يسمى وحده في البرور والبحار ويجوس خلال المدائن
والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضي ويقف ، حتى يستقر ملهما عند
قبره ، جادا لا يلوى على شيء قبل بلوغه ، والنسباس متنحنون عن

طريقه ، تاركينه يتهدى لطيته . . افمن هذه الصور ينتزع الشاعر
مادة الرثاء والاجلال ؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال
شوقى . اراد ان يقول كما قال البحتري :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما

فى وسعه لسمى اليك المنسبر

فكبا كبرة حاطمة .

ولقد طمع شوقى الى معارضة المعرى فى قصيدة من غور شعره
لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا تذكر اننا اطلعنا فى شعر العرب على
خير منها فى موضوعها . والمعرى رجل تنعم هذه الحياة محرابا
واجتواها غابا وصدف عنها سرايا - لايس منها خفايا اسرارها ،
واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع فواير آثارها ، وحواضر اطوارها ،
فاذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله
وتلك سبيله . واين شوقى من هذا المقام ؟؟ انه رجل ارفع ما انفق
له من فرح الحياة لذة يباشرها او تباشره واعمق ما هبط الى نفسه
من آلامها امراضة امير او كبير ، وما يمثل هذا ينظم الشاعر فى
فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا تكبر قصيدة المعرى تعصبا
للقديم وابشارا للعرب على العجم بلقى اليه ها هنا درسا فى الشعر
قد ينفعه .

فاعلم ، ايها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر
الاشياء لا من يعددها ويحصى اشكالها والوانها . وان ليست مزية
الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبهه وانما مزيتيه ان يقول
ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من
القصيد ان يتسابقوا فى اشواط البصر والسمع وانما همهم ان
يتعاطفوا ويودع احسهم واطبعهم فى نفس اخوانه زبدة ما رآه
وسمعه وخلاصة ما استطابه او كرهه . واذا كان كذلك من التشبيه
ان تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين او اشياء مثله فى الاحمرار فما

رُدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ،
ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما
انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان
فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما
تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى
نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى
صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه
مطرباً مؤثراً وكانت النفوس توافقه إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد
الحياة حياة كما تزيد المرأة النور نورا . فالمرأة تعكس على البصر
ما يشيء عليها من الشيعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على
الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجوداً إن صح هذا التعبير ،
ويزيد الوجدان احساساً بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذي
لا يخطيء في نقد الشعر هو أرجاعه إلى مصدره ؛ فإن كان لا يرجع
إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن
كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات
كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك
شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من
شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة
وما أخال غيره كلاماً لشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فإن تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعري
التي اجترأت على معارضتها .

نظر المعري إلى سر الموت فلم يره في مظهره الضيق القريب ،
حادثاً متكرراً تختتم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة
العميقة . رآه كما بدا منذ القدم لبداية الحكماء وأصحاب الأديان ،
وكما تبطنه من قبل بوذا وكنغشيوس وماني ؛ حرباً سرمديّة قائمة
بين قوتين خفيتين ميدانتهما كل نفس حبة وكل ذرة في طباق
الأرضين وأجواز السماوات — هاتان القوتان هما الخير والشر أو

هما النور والظلام أو هما الحق والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تففل ، وأعوان لا تنسى تقبل وتدبر ولا تتهمل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان أن كان للزمان ختام .

نظر المعري الى العالم الأرضي فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نجبا مقضيا ما أحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما في كل كيان قائم ، متقادما في كل ركن متقادما :

**كل بيت للهدم ما تبتنى الود
قاء والسيد الرفيع العماد**

وعلم أن القوتين اللتين هذا اثر تضالهما في الأرض فاعلمتا هذا الفعل لا محالة في أشرف كواكب السماء واسماها ، واضوا عوالم النور واذكاهما .

**زحل أشرف الكواكب دارا
من لقاء الردى على ميماد
ولنار المربخ من حدثان النهر
مطف وان علت في اتقصاد
والثريا رهينة بافتراق الشمل
حتى تصد في الأفسراد**

لا يل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين منلاحقين في كل حال .
**واللييب اللييب من ليس
يفتر يكون مصيره للفساد**

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف
على مشهد من ذلك النضال الثرمذ ، فوق افراح الانسان واحزانه ،
ولو نطق الابد لما تكلم بغير قوله :

غير مجد في ملتي واعتقادي

نسوح بأك ولا تسرتم شساد

وشبيه صوت النعي اذا قيس

بصوت البشيسير في كل نساد

واذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظره
القائط المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما أعجب

الا من رغب في ازدياد

ان حزنا في ساعة الموت اضعاف

سرور في ساعة الميسلاد

اسف غير نافع واجتهاد

لا يؤدي الى غناء واجتهاد

كذلك كان احساس المعري بسر الموت ، وهو اوسع احساس
قدر لبشرى ان يحسه من ذلك السر الرهيب .

اما انت فقد نظرت فماذا رايت ؟؟ لعلك ادري بما تنظر وترى
ولكننا نقول لك ما لست تدري . انك لم تر شيئا يحتاج الناظر في
رؤيته الى غير الحواس - انك تقول « لم يدم حاضرا ولم يبق باد »
حيث يسوي المعري بين وكر الورقاء ومعامل العظماء وبين منازل
الارض ودارات السماء . اردت ان تعمم كما عمم قفاذك مغزى
تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قشوره ، اذ ما علمنا بين
الحضر والبدو من فرق في التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما
في حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان
احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الاخر لتباعد الدار او انقطاع

الأخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادي لمثل هذا السبب .
وأما قولك يموت من في الحاضرة والبادية فكذلك الناس أسما أسما .
وقولك عن كل واحد أنه يموت ، وعلى أنه لو صح أن يقال هذا فأي
فضل فيه لقبر الحواس وأي دليل فيه على اللب الحكيم والطبع
القويم ؟؟ وتقول في القبر أنه منار المعاد .

وزمام الركاب من كل فج
ومحيط الرحال من كل واد
وهل بين واد وواد فرق في هذا الحكم ؟؟ وتقول :
وعلى نائم وسهران منها
قدر لا ينسام بالمرصاد
وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

ليس ساقه السردى وانظن
النسر من سهمه على ميعاد
فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .
وإذا تجاوزنا هذا الباب إلى غيره وعمدنا إلى مقارنة الأبيات
المتشابهة في القصيدتين الفيناك تخطيء في كل بيت تسرقه من المعرى
أو تأتي بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .
المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحد مرارا
ضاحك من تراحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين
في طويل الأزمان والإباد
وليس أجل ولا امدق من هذا الشعر . وأن تعبيره عن تعاقب
الدفن بعد الدفن في الموضع الواحد بتراحم الاضداد وقوله أن

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان في وصف تهكم الموت بالأحياء وعبت التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب احسن عدلا
وقياسا على حقوق العباد
نزل الاقرباء فيه على
الضعفى وحل الملوك بالزهاد
صفحات تقيسة كقلوب
الرسل مفسولة من الاحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم احسن صيانة لانه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضییع الحقوق !! وما الذى لقيه اضعف العباد من اقواهم واظلمهم اشد من هذا الانصاف والصيانة !! ويخيل اليك أنك ابدعت حين قلت ان الملوك يستضيئون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى ان الزهاد لا يستضيئون الملوك فيه على السواء !! فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقتله لغير غرض . اما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق او بلاغة الاسلوب حين قال :

وعزیز على خطیط الیسیالی
وم القاصمکم برم الهیوادی

وهذه هي البلاغة الجادة التي لا لعب فيها .
وعندك ان طهارة القلب هي موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيًا مفسولا كقلوب الرسل . افليس من موت القلب ان لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب !!
يقول المعرى :

خفف الوطء ما اظبن اديم
الأرض الا من هذه الأجساد

وانت تقول :

والفيصار الذى على صفحتها
دوران الرحي على الأجساد

المعري يسأل :

ابكت تلكم الحمامة ام غنت
على فرع غصنها الميساد

وانت تأبى ان لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكي فتقول :

ضاق عن تكلها البكى فتفتنت
وب تكل سمعته من شساد

ثم بروك وانت تبسارى المعري مبالاة المضحكين ان ترمم
لناجيتك ولنفسك انك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى
آية من آياته !!

على انك قد تعلم بعض العذر فى قصورك من هذه الناحية لانك
مجبور فيه لا مخير . اما الامر الذى لا نعلم لك منه علرا فان ترثى
رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضا ، وان
لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من ضمار الناس . ولو كان
ذاك لضيق فى مضطرب القول او لنقص فى بواعث الاسى على الرجل
لما خفى تعليقه ولكنك تعلم كما نعلم ان مصر الحديثه لم تنجب من
دمائها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دقات الحزن ويطيل
مدد الرناء بعض ما لقيم فريد . فتهاونك فى قضاء حقه وتوفية
قدره لا يكون الا لعجز او كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلا حنة
لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وانت بأسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من قساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع في الهجاء ، أو
يتوى الدم فيأبى بما ليس يفهم منه غير التثناء . واشد من ذلك
أيضاً في سقم الذوق وتغلغلاً في رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث
أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو في موقف التأبين والرثاء
والعبرة بالفناء .

ولست أدري أى ما جن من نظاميننا قال هذا البيت في رثاء
أحدى العيان :

رحمة العود والكنجاء عليها وصلاة التماس والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر في مثل هذا
الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الفناء واقدار ذويه - أسلم
ذوقاً في بيته هذا من شوقي في رثائه لعثمان غالب . لأنه تعمس
الهزل فقال له وما كان شوقي كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل
هذا الهراء .

ضجبت لمصرع غالب	في الأرض (ملكة النبات)
امست (بتيجان) علي	من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغية	بته واقعت الجهات !!!
في ماتم تلقسى الطيب	عة فيه بين النائحان
وترى (نجوم الأرض) من	جزع موائد كاسفات

والزهر في أكمامه يبكي بدمع الفساديات
حبست أقاحي السربي والعهد فيها مومضات !!
وشقائق النعمان آ بت بالخدود مخمشات

بل تمنا لا مرأ فيه أن صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء
وبر بوعده لنفسه واعتبط بما دب عليه من المعاني الدقيقة والنكات
الأنيقة ... لأنه استطاع أن يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير
موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر أو الثمر
كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . بذكرهما في غضبه ورضاه ،
وفي لهوه وبلواه ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته
وكرهه ... ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل
المدينة الأهلة ، وحين يروي عن النعمة السابغة أو يتحدث بالمصيبة
القائلة والنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلها
بفتن الجمال من إذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل أنها صفراء
كالأقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب أنه يتفلق كما تنفلق
الرمانة ، أو المتدلى من المشنقة لم ير أنه يهتز اهتزاز البانة ، أو
قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقي لم
يوف هذا الغرض فحسب بل أرانا أن الأزهار لا تجري على سنن
الجمالة في النواح ، فعل النساء ، وإنما تحزن على من هي غرس
يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا
بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة أن تدل دسمة
أسفا لفرقته وإنما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والدوق المليح
فكان يجعل أسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا
لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمران
النحاس احتقاننا ، ولين القصدير ذوابنا ، إلى آخر ما هنالك من
ألوان العذاب التي تلم بالمعادن الصلاب - ولو كانت النكبة في عالم
« جيولوجي » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) أن
الطبقة الرملية في ناحية كذا تجثو التراب على رأسها فرما ورعبا ،

وإن الطبقة الجيرية في موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وإن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء في شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يفتح بأقل من الحاق الزحاف والأقواء والخبن والسناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذي الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وأي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة في سهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادح لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟؟ هذا ما نسأل الله اللطيف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان والاشكال قلن نطيق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لا بد من التضحية ، لا بد من فقدان والخسارة في هذه الدنيا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الإنسان أن الأشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التي ما برحت قاعدة في مكانها منذ الأزل ، ولا من الهين أن يحشر الطبيعة « لا أكثر » في ماتم تكون فيه إحدى النائحات « فقط » ولا من اللعب أن يصل في كل ساعة الى ابكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار - ولا سيما النفسية منها - كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكي يقول الرجل الفنان منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعاني العميقة ، لا غنى له عن التضحية بالدوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدي والشعور القوي ، وهذه كلها ضحى بها شوقي على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقي ولا مبالة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غشا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتفنن وروى . أجل !! انه لم يورث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرثيه أولئك السدح الهباء ، الذين يحسبون ان الإخصائيين اذا ماتوا فيجمعوا احدا غير المواد التي

تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا اودى احد
اولئك الاخصائيين اسفوا ووصفوا اسفهم هم عليه (مباشرة) ولم
يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب
السحاب تارة اخرى ، او يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها
واسواتها واحيائها ويجعلوا النفس الانسانية او نفس المصاب بالبلية ،
آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود ان نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي
وافتنانه ، والاشادة بخلايقه وبيانه . لولا اننا آثرنا ان لا يفوتنا
سؤاله عن انواع من النباتات لم يسمها في تلك المناحة التي اقامها -
ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل
ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والتفشاء في ذلك الماتم العميم
الذي كانت الطبيعة فيه احدى الناحيات « فقط » !! انه سكنت عن
هذه الانواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النبأى الكبير ام
لان من خواص تلك الانواع التي يعلمها السحراء ويجهلها النبأيون
انها مضیعة للعهد ناكرة للجميل !! ام لعلها لا تنتمى الى عالم النبات
وان ردها الناس اليه ، كالرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون
جمادا وهو من عالم الحيوان !! ام هو الصلق في الخير والامانة في
التبليغ اوحيا اليه ما قال فلذكر فريقا وسكت عن فريق : راي
الرجل الاقاحى باهتة ذابطة على غير عهدا وابصر شقائق النعمان
تخمش خدودها فابرا ذمته وادى اماتته ، ولم ير القطن ولا القمح
ولا سواهما يصنع شيئا قريبا بشمره عن شهادة الزور والتخريف
وسجل عليها ما سجل من جمود الطبسائع وقسوة القلوب !! تلك
اسئلة ما كنا نسألها لولا اهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا منذ
الآن ان نرقب اعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الانسان ، تعرفنا
لجلال الانباء واستطلاعنا لخفايا الحوادث قبل ان تبض بها اوتار
البرق ويظهر بها التجابون ، ولو اننا عرفنا ماذا ينبغي ان نحسن
الامة من موت الاخصائيين من رجالها ، وانها مسئولة ان تضن
بارواحهم مخافة ان تمتنع نرجسة او تسود فحمة ...

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء المسالم الطيب
فقال مفصلا مقسما :

اما مصيب الطيب فيه
فسئل به مالا الاساءة
اودى الحمىام بشيخهم
وما بههم فى العفصالات
ملقى الدروس المسفرات
عن القروس المتمررات

والقارىء يرى انه لم ينبع نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب
استهجانا له او توبة عنه وانما خاتته القريحة وخذ له الاختراع .
والا فماذا كان يمنعه ان يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة - مثل هذه
الآيات .

طسريت لصرع غالب فى الأرض رسل الحميات
قدمات (غالب) جندها فتمردت بعد (المات)
امست جرائيم الملاذيا من سرود (ظاهرات)
وتفرق التيفوس والـ تيفود فى كل الجهات
وتألب المكسروب والـ سبكتريا بعد الشتات
وبكت قوارير الصيادل بالدموع السساتلات

فهذه آيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد
للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا قليل لنا قيم اخطانا المحاكاة
وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكأنا بصاحب « الامتياز »
الأصلى يعرض بنانه ندما على قوات هذه التتمة الصالحة فانه ليس
أغص للنفس من فرصة يلوح لها تأنيها بعد معالجتها والياس منها .
كذلك يؤبتون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهمون !! وأما والله
لو توخى هذا الذى شمر لتأيين عثمان غالب ان يمازح الرجل بكلام
يعرض له فيه بعمله وصناعته مسترسلا فى الدماية مستهترا
بالمجون متبسطا فى الفكاهة لما استطاع ان يضرب على أوقع من هذه

النخمة . فليت شعري بأى ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين
بباعد القطبين ؟! أبدوق الشاعر المفسور الذى يفرق بين شبهات
السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات
المواطن ولا تلتبس عليه أخفى الوانها ؟! يقولون أن أذن الموسيقى
المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر
يشفى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس
المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين
احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان -
أحدهما لا تحسه النفس الا فى أبهى ساعات الحياة : ساعة التبسط
والانسراح ، والثانى انما يخامرها فى اقدس مواقف الموت واجلها :
موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . لا الا هكذا فليمت
الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود .
مه ! انه ان من السخف لما تعافه الجيلة وتتقزز منه النفس
تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة
الاغبياء بالتحرك لانتقاده اشنع هذا النوع واقلره لانه كالورم الذى
يخيل الى الفر من احمراره ولمعانه انه ماء الحسن وروثى الصبا
قيهى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززا ان يرى الدمار
مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشعزت نفسه
من رؤية عاهاتهم ومقازيرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر
فترى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة
يستحسنون مثل هذا الشعر على غثائته وعوارده بل هو لا يروقهم
الا لما فيه من غثاة وعوار - خلأنى كل ما نستطيع أن نعمل به هذا
الاعوجاج فى طبائعها واذواقها انها تلقت لفرط ما أخلدت الى الكسل
والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لها أن تعنى بها وتكتثر
لها ونقلت لشدة ما توالى عليها من عنث الدهر وذل الحوادث والحاج
الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أمقبها هذا البلاء للآزب
شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبها العجز عن احتمال الجد والتماهى

في الهزل واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهروب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للدوق السليم فاصبح جهل الدوق في زعمهم التصنيع والاسترخاء وتخثت الترف المؤنت . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الدوق الانساني وحسن استعداده وانما هما تقيض هذا الدوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية - الا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الادميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش احشاءهم وتقضم عظامهم وتلع في دماهم وهم يسمعون انينهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب !! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد !! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعمومة الاخلاق ما لم يروه الرايون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكانما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الدوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفى هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان لم تر آية لله احيى المومنين

يا امر الشاعر المرثى ان يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية ... فيحسب السامع ان الآية التي سراها الدفين بعد بعثه اعجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم ان الاعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر الى ميت يبعث ... فهل سمعتم في العى والاحالة ما هو احق من هذا اللفظ الفارغ الخاوى ؟؟ اليس هذا كايقظ النائم « ليشفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يمرض في المسارح للمتعجبين ؟؟ وعلى

أن بعث العلامة المدرج في اكفائه اغرب واشد استحالة من بعث الموميات التي يعنيهها شوقي لأن موت الأمم مجازي لا تستغرب الرجعة منه وموت الأفراد حقيقي لا رجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فإن كان القصد من بعث الأستاذ غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه في ضريحه ، لا شيء الا أن يرى المعجزة التي قد رآها ... وبعد فليذكر شوقي أن الذين يدعوه بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فإن كان هو شاعرا لأحد فهو شاعر الموميات ، وإن كان لشهرته حد فهو اليوم الذي يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من السرى وتحسرت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آية » ويصيح سليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شامتسا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم ان اسطمت في سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره .. أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من في التراب !!!

ولم ينس شوقي براعة المقطع فختم القصيدة باليق بيتين يتممان ما فيها من خلل الإدراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله
فأتى بأحدى المعجزات
عيسى الشهور اذا مشى
رد الشعوب الى الحياة

ففى كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يظن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم ان الحياة هى التى تنشئ الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس اسرار الحياة وقضاياها الفامضة الا عفوا لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به انها نكسة ادبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك ايها القارىء شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا اول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود اكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه اخلاقها وشمال نفوسها من آدابها وفنونها ، الى أن سيق اليه ضيعة من صنائع شوقي فاسمعه أن ها هنا شاعر يدعوته أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين - الى اشباه هذه الألقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتقق ذلك لاحد كائناً من كان في العالمين : وقد تعلم ايها القارىء أن اذكىاء الغربيين وخاصتهم لا بالقول الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوروبا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم ايامه وكثرة المعجبين به وتداول طبقات كتبه - مسوغ لهذا اللقب . فلا بد ان يلمح الشاعر الغربي في تلك الصفات التي سمعها مفالة وشططا . بيد انه يجب

أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف المعاني والمثل العليا والخيالات التي إذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعي ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هي قصيدته في استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الأطباء السائرة في الرمل ومن جماعه الأطباء .. » وهو ترجمة قول شوقي :

اتن عنان القلب واسلم به

من دبرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » إلا أنه يتوهم أن فصائل الأطباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم في هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها وعراهمها . ويود لو يرى هذه الأوابد الأفريقية فما هو إلا أن يسأل صاحبه في ذلك فإذا الجواب حاضر يلقي اليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجاهل : « كلا : كلا : ليس في بلادنا طباء مخيفة ولا أليفة — ما إلى هذا قصد شاعرنا ، وإنما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فأننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلَاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية » .

نقول : ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربي هذا التشبيه على

انه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا ادرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحللاء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد ان تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغفم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما اشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفثيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذلك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الاقدمين » .

فيفاجأ الرجل ويجد انه قد احال غير قليل على تباین الامزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا ان يحيل التقليد في الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الأمة ليكونن اذن بين قرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز في العقول : فاما ان الشرقيين وكبت قلوبهم واشرجت شهواتهم بحيث اذا احب السلف العربي الى الخلف المصري متغزلا بعد عدة قرون . . . وهو مستحيل . واما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون في ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض احدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس اقوى خوالج النفس واعنفها وهي غريزة العشق الجنسي . وما خلق الله لامرء من قلبين في جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه اخذ يفهم بعض الفهم ويقول لترجمه : « اخالتي قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الغربيين كما يتسلون احيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين او يتزبون بزي الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا

باحتراء أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الفاسدة .
رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من
جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة .

فيفخر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات
يحسبها انخافى والفتا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الالقاب
حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب
بالفرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا
وانما نظمها في مستقبل امة ناهضة . . وتحية لزعمائها . .

الى هنا ينتهى العجب باليقين - فان كان الرجل قد ارتضى
التقليد في التشبيه والفزل واغتفر تقضى المدينة العامرة ببابا وقلب
الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام
في نهضات الأمم بالفزل صادقا كان او مستعارا ، وان يفهم الابتداء
بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلء ، تمهيدا للشاء على
مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يشن ويتوجع ، في حيث يفخر
ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصع
والاهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان
اعوزته دلائل الحكم على منحنى افكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا
فكفى بما سمع برهاننا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم او
يتجانب ، ثم لا يكون بعد ذلك الامعدورا .

* * *

ونحن لم نمثل في الحديث المتقدم بشاعر غربي لان فهم هذه
البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغييب عنهم
بساطتها ان يفهموا على اى وجه تلوح غثائلات التقليد ان خلصت
مقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح
عليها . والا فالى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ريقه

التقليد لا يشعر لأول وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من الشعر !! ما الشعر الا كلام فان كانت له ميرة على الكلام المتبدل فميزته انه اجمل وابلغ واحسن وضعا للمعاني في مناسباتها . فويل يتكلم الرجل في السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل ان يخلط في قصيدة واحدة بين ابعاد موضوعين عن الانتظام في نسق واحد !! فلو انه كان صادقا في عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاغته بين الملا ، فكيف به وهو متصنع لا يحشق بغير اللسان !!



لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكى هواه ، هجيراه كلما راح او غدا حبيبته يحن الى لقائها او صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة لم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وفسان وفارس وينتجعون الامراء والاجواد في اقاصى بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يداونها احيانا بوصف ما تجشموه في سبيل المدوح من فراق الاحبة والم الشوق وطول الشقة وحياتا كانوا يصفون الناقة التي تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظما والطوى ومواصلتها الليسل بالنهار سميا الى المدوح كنسابة من الشوق الى لقائه ، وكان الغرض في الحاليتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الامل في مشوبته ، فكان الابتداء بالفضل ووصف المطى في قصائد نظمت في المديح

وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء ، ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يقدون على الامصار فينهجون نهج اسلافهم مطبوعين أو مقتسدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيرا من الغزل في قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك في العظام كما صنع أبو تمام في يائته المشهورة التي مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفي رائيته التي اولها .

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرب حذار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتحا :

**ذي المعالي فليعلون من تعالي هكنا هكنا والا فلا لا
حال اعنائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا**

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهى المحل الثانى

وكما صنع الشريف واضرا به في كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائع وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان احدهم

يقصد الأمير في المدينة وأنه لعل على خطوات من داره فكانما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الغلوات التي اجتازها والمطايا التي انضاهها وحقوق الصبابة التي قضاه . وكان الواحد من هؤلاء يزج بفزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال . . . ، يجيء شوقي فيتماجن ويتصابي في مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحال التي جدها وانتبه الفافل من لعبه

ويجيء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين أنه مجدد وأنه عصري بل أنه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الفزل الذي استحل لأجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الإجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع وإن حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه . ولكنه هو الفزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظاميين والشعاريير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الوزانين لم يفسل رجله في وعاء هذه المعاني التي نضج بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « أرداف مرتجة كالكتبان أي كأكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالأقمار أو كالنجوم » . « مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هي روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه . فاما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها

الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدبرة وأنها خلو من الأسباب
والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعري فيه
ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطرهم كالقطر هز الثرى وزاده خصبا على خصبه

لولا استلام الخلق أرسانه شب فنال الشمس من عجبه

وأنه لائق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر
فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أحمر الشعراء ولكن (مكره
أخوك لأبطل) .

ولا أصعب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين
منها القارئ مبلغ ما يقمله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ،
وأن فى الأطفال اللامعين خيالا أفطن وتمييزا أصفى من شاعر يكف
على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الأمريكية منها مناظر
خاصة لأطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن أشدها
غربة المطاردات الجامحة التي تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك
الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والأواني . وهى كثيرة لا أظن
زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها - حضرت منظرا
من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يمدو
ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والراوغة الى أن
وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يمدو خلفه فى سيارة فوثبت
به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستغزه
المعجب فيشب ضاحكا . وما أخالهم إلا كانوا مصدقين ما يروونه
وأنما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال . . . فليت شاعرنا
الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ نسمع
ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته

ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل
أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شاباً فوق الرأس في
طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرساته يمنعونه
ويكبحونه - لقلب حلقه من الاستهزاء على ولعه بالأغراب ، والأمر
بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا انهم
يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية
كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذي لم يخلق للجمال أجنحة
فكانت تطير فوق بيوتكم النخ النخ » .

أما أن القطار كالطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيهه
لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن
أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من
المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار
والقطر غير التجانس في الحروف . وهكذا تتعلق أشعار المقلدين
بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقي كما قلنا في أول
المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق احدا يتقبله ويحلله المزللة التي اخلته فيها لجنة الاغاني والالحان . فان المنا به الماما في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهي توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها في اكثر الاحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب في مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . اما في اوربا فربما بلغ من تهاون الادباء بشانها ان يطبع احدهم رسالته او قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهاور التي كتبها في الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت مقطرة الابد .

تصلت لجنة الاغاني للحكم في اناشيد الشعراء اولت نفسها هذه الكفاءة — وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة باشياء جمة قل بين اعضاء اللجنة من يعد ثقة في واحد منها . فمن شروط الحكم في الاناشيد القومية ان يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعاني ، مطلقا على اناشيد الامم ، بصيرا باخلاق الجماعات واطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الراى والمعدل والجهل باسماء من يحتكمون اليه . فهل بين اعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟! اننا نعرف من بين اعضائها اناسا يجبل ذكاهم وتكيز فضلهم في علومهم ونراهم اهلا للحكم في امضل المشكلات التي

تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء .
وإذا علمت أن الرجل من الاختصاصيين يقضى العمر في فنه بإحشا
منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطيء ويبرم اليوم ما نقض
أمس ، فأحربك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم
يدع الخلق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل إلى
إنكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة
وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلا من الأمضاء ، ولا ندري لم
تكلفوا اغفال اسمه وراوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم
سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر في
الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء
إلى رفضه ؟ بل لا ندري لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد
وتمهلت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟
أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة
واحدة ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في إحدى الفرق
يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق
وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر في أناشيد مجهولة ،
واسرار مكتومة ؟ فهل سعى النشيد وحده إلى دار التمثيل ؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على
اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مأخذ وعيوب ، نبه إليها بعض
الفضلاء ، وردته إلى صاحبه ليجتهد في إصلاحه قبل إذاعته من
قبلها . وذلك أن عضوا عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للمسز ركن
ليس لكم بوادي النيل عن الخ الخ

وقال إن البيت الثاني منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح

ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بـعدن والنيل بالكوثر ؟؟
فوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الاتيين ومعناها:

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهلال
واقبلنا كصف من عوال يشهد السمهرى السمهرى

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى أن أحدهم قال :
اننا نجعل مصر وطنا يشترك في حبه ابناؤه ، وأما ملة ذى الجلال
فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال »
وهو انتقاد شديد فأننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون
الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ انما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا
الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا
قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة
« كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا
نحمل تبعته . ويظهر أن النساظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع
المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على جالها .
أصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيننا ويبقى وجهك المفدى حيا

وكانوا قد اخذوا عليه قوله « نموت اليك » لأنها لم تسمع فى
كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت
رضاك مصر النخ » - وقد نشر كذلك فى صحيفة الاخبار - فلم
يقتنعوا . فجعلها اديب فى النسخ الأخيرة « نموت فداك » فافتنعوا !!

ونذكر ايضا أنه كان بين المحكمين أعضاء من المفنين والموادين
جاء بهم ليحكموا فى أى الاناشيد أصلح للفخر القومى واشد اعتلاجا
فى النفس وابتعانا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه فى
اللحن الذى يشبث القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الواتى لتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهمج الى الأمل قدما ،
والعدو فيتضعض قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الامة
فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء
المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان
النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهائلة ،
وصارخة ومبتهلة ؟! وهل فيهم من يروى بأنقامه عن جلال الحياة
وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغي أن تكون الموسيقى ؟!
لقد علم كل انسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى
ولكنها اصوات اللل والضراعة والحن ينشدها النائم فلا يستيقظ
ويسمعها الصاحى فينام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا
وعده المعروف ولو أنه لم يعد لما دار بخلد احدهم انه على غناه
يطمع فى مائة جنيه يحتجنها لنفسه فكان بهم الأعضاء أن يفوز هو
بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى ، والنساذى
بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس أن اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه
هدايا شوقى . على أنه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال
رايه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف اصحابه أنه يتقى أن
يرمى بالحسد أن أوما بالنقد الى قريبه . ومن غرائبه انه كان
ينحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الأعضاء فلما أعلن
الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت .

وعلمنا غير ما تقدم أمورا لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل
على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له
أو عليه ، وليكن قياسنا اياه أن نلتبس فيه أبسط الخصال التى
هى قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب
وموافقا لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل
نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل امتقت فيه كل هذه الشروط
أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق
منشده . وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب إلى الأخبار منه
إلى الحماسة . واقواها قوله :

**لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حداثاته أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نماما أوائل علموا الأمم الرقيسا**

وليس في هذين البيتين من نشوة العخر ما تهتز له النفوس ،
وليس فيهما قوة لا تجد مثلها في قول من يقول « كلز لى بيت سمته
كلذا من الأذرع . بابه على النيل ، وضوء الشمس يفساه من جميع
النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة . . » فإى فرق بين قص
المعلومات والحماسة إذن ؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه
ثم عن أعتات المقيد المجهود فخفت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا
واستمعى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سلت »
سيلت و « تها » « تها » و « شيئا » شيئا : نعوذ بالله من الشئ .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مسكانكم تهيأ	فيها مهسدوا الملك هيا
خذلوا شمس النهار له حيا	الم تك تاج أولكم طيا
على الأخلاق خطوا الملك وابنوا	فليس وراءها للمعسر ركن
ليس لكم بوادى النيل عدن	وكونرها الذى يجرى شها

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟؟
أجئني يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطنا شوقي مطية الفلسفة والواعظ بعد ان ركب
حمارها يبيت واحد سوقى المعنى وهو قوله .

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا في كل مكان ومقصد . حتى طلع
لنا باذن حماره الفلسفى هذا في موعظته « على الاخلاق خطوا
الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك او شمالك . .
فكانما كان شوقي على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما امكنه ،
وكانما لهذا احرز السبق لا لان نشيده كان كما وضفته اللجنة
« اكفاهها واوفاهها بالفرض واجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق
لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من
كل شرط يتسق للانشيد لما عرفنا كيف كان يسبق في هذا المضمار .

وفي المقطوعة الاولى خطأ تاريخى ما اظرفه في نشيد امة تفتخر
بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر
مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . واما
تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد
وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة
الاولى في المدارس الثانوية ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا
يحطونها بصور الطيور المعبودة او التى يرمز بها الى العبادات ولم
تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان . . فياحبذا النشيد تتغنى
به امة فيكون مطلعها عنوانا على جليلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء ان نأخذ على شوقي مبالغته في قوله : « خدوا
شمس النهار له حليا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه
تاويل .

واما المرافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل
طوال الدهر كدائنا في يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به في
جميع العصور ان يتها مكاننا . وان لا نبرح نشرق في التمهيد ونأخذ

في الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشديد الأركان . وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه ان يكون فال الامة وهاتف مستقبلا فينصب فيها تميب النحاس ويندرها جمودا لا تتزحزح منه او تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقي بالمواقف من قصائده الأنفة ، واجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا او قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتسا البصيرة ان يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومي ، اى دعاء لا يعوقك دين من الأديان ان ترتله في البيعة او تشدو به في الكنيسة او تصلى به في المسجد ، فيخيل اليه انه اذا جمع فروق الأديان كلها في جملة واحدة فقد أتبع له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟

يكون ان الاسرائيلي يحرم هذه الصلاة في بيعته لانه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد . وان المسيحي لا يدعوا الله به في كنيسه لانه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولانه يدين بربوبية المسيح لا برسائله فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكانه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وان الدعاء القومي لا يكون دعاء لاحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهيا صناعته تجهيز الموائد قبل له ان ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهي احدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها في صحن واحدة لطرد من فوره فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهارة ويفرق في غفلة الذهن حتى احسبه احيانا يعتمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذي يقضى به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصصه ولا يتركه وفيه زيادة لستزيد . فبعد ان خطر له ان يجمع شفاعات الأديان اجمع كي تكون شفاعاة لكل دين ، عمد الى لصق الانبياء نشاة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذي لا يناسب هذا المقام ، والذي

لو كان هو وصفه الغد لا سواء لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدري تساعر مصر من رق من هرب موسى ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد في خفراء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبسوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، او يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العيسارة : وقد قراناها لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه في النشيد اخف وأهون ، من حيث ان الاناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لا نرى معنى لزوج الاديان في الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون ادل على الوفاق ان لا نجعل وفاق الاديان مباهاة ومائرة ، لان المرء يباهى بالشيء النادر او غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والتبدييه اليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت اناشيدها من ذكر الدين ؟ اترأها لا تحب ان يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا اننا لا نقصد الى الافاضة في نقد النشيد ، فكننا نقارنه بما نعلمه من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . اما وقد اخذنا من مساوئه ما اخذنا فليس يسعنا ان نهمل ماخذنا سسمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك انهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهي هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا

فلما آل للتاريخ ذخرا

الخ الخ

نشانا نشاة في المجد اخرى

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد
وترجع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومد بها
صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع
النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالي
بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد في موقفه والملحن في صنعته

نقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعارا ،
ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة -
نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه احد
فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجترأ
اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس
ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارئ اننى ما كنت أظن
فى جمهور قراء الأدب استقلالا يقاوم تأمر الحكّمين والصحافة
وسماسة المجالس حتى رايت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة
وتزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيد
المنشورين ، وفى هذا الاستقلال امل نفتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومي

راينا ان تنشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي
ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي يخطئاه شوقي من التفات
الاذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر
بعد شيئا من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم
منذ ثيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى
على أحد . وقد اتصل بنا انه كان ثالث الاناشيد التي اختارتها
اللجنة فاذا حسينا للمحابة صاحبها جاز ان نقول انها حكمت
بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين
النشيدين حتى في الخصلة التي اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب
هنا أشبه بمناجاة النفس وهي في نشيد شوقي مخاطبة اجنبي
ممنزل للشعب الذي يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بني النيل واحفاد الالى
اطلموا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والممالك لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم
اذكروا ان ترى هذا البلد
من تجاليد الجود المظلماء
لا تظنها ارجل العادي الال
وبكم ابنسائهم بعض الذماء
تربها التبر المصلى المنتقد
لا الذي يقنى الشحاح الادنياء
فامنموا كنزكم ان يسبلا
او تميشسوا عمركم عيش عديم

لن تروا في الأرض عنسـه بدلا
ما لكم كنز سوى هذا الأديم

اذكروا أن عليكم واجيبا
لبنينا في بطون الأعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا
فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضي الأثر عصرا ذاهبا
فلنصنعه للعصور الآخر
سنؤديه اليهم اكتملا
لم يفسره زمان أو خصيم
فحمى مصر تحسبها البلى
وبنوها خير من يحمى الحریم

اذكروا حاضركم كيف يقسم
ليس يغنيها تلبد القسـم
ما التماثيل الهيئات الجسم
وابو الهول رهن الصحراء
ما المسلات على باب الرجم
والنواويس وفيها المومياء
ما عظيم تالد من المسـلا
في ثنـايا حاضر غير عظيم
فاجعلوا عهد العـلا متصلا
كأنساق الدر في العقد النظيم

اذكروا مهما بلغتـم سؤدا
انكم لم تـلفسوا أوج الكمال
ابعدوا فوق المنال المقصدا
فبنو الشمس لهم أقصى المنال

كم عبقنا قرصها التقينا
 فاتقنا في حماس ونفصال
 نبتي الهيكل يتلو الهيكل
 خالدا في ساحة الرمل مقسم
 وسيبقى موطن الشمس الى
 يوم لا يبقى لها قرص ضريم

 اذكروا ان التفانى والفلا
 في سبيل المثل الأعلى البعيد
 نفثا فيكم وانتم من تراب
 شعلة غراء من معنى الخلود
 شعلة تجلو عن الحق الحجاب
 وتصفي النفس من رجس الوجود
 فاضرموا في النفس هذى الشعلا
 اضرموها تكفلوا الفوز العميم
 مثلما اضرمت النار على
 مذبح الرب بمحراب كريم

 اذكروا ذلك وامضوا قدما
 لا تكن وجهتنا غير الامام
 تزدجينا دقة القلب كما
 يقرع الطبل لجراذ لهام
 فنسوغ المسوت ذودا للحمى
 ونذيل العمر سعيا واعتزام
 فيحقق نحن احفاد الالى
 اظلموا القجر لتاريخ قديم
 رفعوا الاهرام والممالك لا يبتنى
 الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صديقي

صنم الألاعيب (١)

شكرى صنمى ولا كالأصنام . ألقت به يد القدر العابثة فى ركن
خرب على ساحل اليم - صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم
« أرستفانيل السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على
جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و - لم - لا يخلق الله
والمضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها وأشعرها الحاجة
إليها ؟؟ ولم يلتزم فى الإنسان مالا يتوخى فى سواء من وزن واحد
وقافية مطردة ؟؟

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى
بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبير القدرتين : هنا تبع
مزيد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة
وأواذى متوثبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة
باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها غذبات
الأشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الاصال وروعة الاسجار . ولا
يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آتى الأزهار ،
أو الغمام ترسم فى صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة
فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذبوعها وانتشارها بل « وثبها »
من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر
مدى البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

في الصباح البليل وقد انقلب اكمنه الانداء فتساندت رؤوسها
كان سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .
كلا ليس في كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك
هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس
نفسه وصار لا يتقذه منها ومعا منته به من صنوف البلاء إلا أن
تهدمه فؤوس الكاشفي طبقات التراب منه . وليت تراب الخمول
لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا أفتيا
عنه من جمود طبعه شيئا وإن كان وهو ملقى بين انقاض حياته
يتوهم أنه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته .
يقول كلما اعجبه شكله أو حاله أو آثاره نبذه واهماله « أنا اله
الشمر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على أفريز البحر وترمييه
الأمواج برش من سخرها وتسك انقابه برعد من ضحكها فما أجله
من اله يتضحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس المدر
إذا كانوا اسلم فطرة من أن يكتروا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين
وإذا تركوه غارقا في طوفان من الأوحال النفسية مدفونا في قبر من
بكمه العجيب . وإي بكم اعظم مما أصيب به هذا المنكود الذي
لا يكفي أن يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا
ورسولا يدين هداية في الأدب ؟

وانت أيها القارئ قد تعلم أن سر النجاح في الأدب هو علو
اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وإن على من يريد أن يشرح ديننا
جديدا « لأطفال » هذا العالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافهم في
مسالك الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكر أنهم لم
يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاسمراوه وأنه لكي يغريهم به ينبغي
له أن يتوخي القوة في العبارة عما يريد فإن الناس خليقون أن لا
يؤمنوا إلا بمن عمر صدره الإيمان .

وقلما ظهر كاتب أو شاعر إلا بالأداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على إجادة العبارة عن آراء غيرهم كأبي إسحاق الصائغ كاتب الملوك والأمراء وإن كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب في تاريخ العقل الإنساني والذين يستطيعون أن يستغنوا إلى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الدهن المشبوب والمواطف الذكية تكون الحاجة إلى ضرورة فن الأسلوب .

ولعل هذا أكبر الأسباب التي أفضت إلى خمول شكري وفشله في كل ما عالج من فنون الأدب لأنه لا أسلوب له إذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره في كلامه ليدرك ذلك إذا كان على شيء من الإطلاع فإذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أن يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل» كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس أصداء متقطعة لأصوات مألوفة لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك في موضعه من هذا النقد .

ويخيل إلينا أن شكري على كثرة الشكوى في شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمي للأشعار مقتنرا (١) والقوم في غفلة عني وعن شأني
هذه المعاني تناجيهم فما لهم لا ينصتون بأفهام والهان ؟

وتعزيه بأن الزمان سينصفه وبديل له من خصومه وتظاهره بالأطمئنان إلى حكم الأيام في قوله :

أرمي بشعري في حلق الزمان ولا أبيت منه على هم وبلبال
مجاراة للمتنبى وتقليدا له في قوله :

اتام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختم

تقول يخيل إلينا أن شكرى لو شاء لفطن إلى سر هذا الخمل
وعلة ذلك الإهمال ولعرف أن داءه كامن فيه وأن الناس لا ذنب لهم
فقد بحثوا في شعره على شيء جليل يروع أو حسن يلد ويمتع أو
مستظرف يلهي ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة
قلم يجدوا عنده غناءهم والفوه يريد أن يجعل نفسه هزؤة السخفاء
وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر
الآلمانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالإنسانية
كلها ممثلة في شخصه ولا يسع كل قارئ إلا أن يحس أنه أصاب
موضع الداء . أما شكرى الذى أراد أن يقلد هينى والذى زعم أن
العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وان « ادرج » فى قبرى قتيل الحب والياس
فمن يصدح بالشعر ومن يسخر بالناس

هذا الساخر العظيم والصيدح الفريد والرسول الجليل
لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله إلى سمو قلق وانما
غاية ما يرجو فى حياته أن يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح
غرضه من إيماءاته الخرساء ... وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ
ثورته إذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » !! هذا هو دينه
الذى يدعو الناس إلى عبادته ولا ينفك يشكوكهم إلى الزمان
ويشتهم ويرميهم بالغباء لأنهم لا يستمعون إليه . اليس هو القائل
فى بعض هرائه إذا لم يكن الناشر قد نحلته ذلك نكاية فيه :

كفانى من نبيه الذكر أتى تمر به الحسان فترتضينى

ولا ادرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز
فيه أنه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض
تمر به فيه وتجسسه بميونها وأكفها كما يفعل الصبيان باللعبه
والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الأقل إذا كانت هماتهم
ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى أنه عجز عن إيضاح هذا القرض الضئيل إذ من الذى
يستطيع أن يفهم شيئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج
أن يقول فى نفس القصيدة التى أنزل فيها دينه على الناس وأطلقها
من قيود القافية - والوزن أحيانا - لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا
معتابا الغرام :

انقصسينا ونحسن مقسربونا

من التبيان والأدب القسزير

ولعمري ما عدا الواقع فى قوله أنه مغرب من اليسار والأدب
ولكن التقرب منهما شيء وورود شرعتهما شيء آخر ، وهل بل طرف
لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شيء يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الأفلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضافت عليه مذاهب العول و من
يقول فى صفة المشتوق :

ضافت الأرض عن مآتمه فاء تناض عنها برقة الماحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله - أن كل ما فهمناه من البيت هو
المقصود - أن المشتوق سيظل معلقا فى الفضاء الى الأبد أو أن
الأرض تضيق عن شيء من المآتم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته
وأعلته لتمكن حضرة من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن
شكري متكلف لا مطبوع وأن ما يرمعه من أنه من أهل المذهب الجديد
فى الشعر باطل أنه هو نفسه قال ينمى على المتأخرين حماقاتهم
وسخافة مناحيهم .

« وإذا صلب أحد الأمراء قالوا أن قاتليه أجلوه فلم يرضوا له
القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم عسلاك من بعسد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الأكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر في قلب الحقائق واظهار الدميم
مظهر الحسن . . وليس ادل على جهل وظيفة الشاعر من قرنهم
الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر
لها وليست حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق
المقلوبة ووضع كل واحدة منها في مكانها الخ .

فما احلى هذا الكلام واصدقه وما ابعد قائله عن العمل به
وادناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول
« كله عيشا لا طائل تحته » او ما جدره ان يكف عن دعواه انه من رجال
المذهب الجديد في الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء
باعترافه . اترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع ان يخدع الناس
بهذه النظريات التي ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما
كان شعره من النوع الذي ينعا على سواء ويعيبهم به . ام ظن انه
يكفى ان يلوك المرء جملا كالبيغاء ليكون في نظر الناس حديثا سائرا
مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر ان هذا هو الذي يعتقد
شكري فينا تراه يقول في مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله
بالبداهة) يخلق الجيل الذي يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له
في بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

بيت النسدي فوق الزهور مرققا

كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

او قوله في فلسفة « تراوج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما

ومهرها الحب لا يفلو لها المهر

من لي بنفس اوى نفس بها مزجت

كما تمازج في وديانها القندر

والنفس في عيشها شتى منافلها

منها القلوب ومنها السمع والبحر

(المقصود هو البيت الأخير) فإى جيل يريد هذا المائق أن
يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السير كما ينطقها هو) أما
كفى أن فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب أن يوجد من أمثاله جيل
يرمته ؟ وإى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وإى خطب يكون
أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال
القائل :

كاننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !
وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى
النقد التفصيلى أن نورد للمراء مثلا لشعر السخر الذى يساهى
به قال :

ناصر صروف النهر مستقبلا	قلاله لو جزته اقصر
فجز من كتبه خصلة	لعلها من خلفه ترفع
فالنهر إن اقبلت ذو لمة	لكنه من خلفها اقصر
معلمه مثل طوع المنى	وحسرة ما خلف المطمع
ولا ترم بالنم صفعا له	فانما يصلح اذ يصفع
قراعه مثل قراعه الظبي	وانما يقرع اذ يقصر
فاطل قفاه بمداد لعل	اللون من روقته يخدع
وغض عنه نظرا واعيا	فانما يعديك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له	فخير ما يجدى لك الموضع
حجامة لا شك فى نفهها	وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صسحبته انه	بالرغم من صسلعته ازوع
واحن له الراس لكى لا ترى	فانها من خلفه تلمع

وتحن انما نمثل لىكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن
نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب
لان له ابياتا مبشرة فى اجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره
على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا
لا منيودا كما هو الآن . وما بالعجب أن يكون له بضعة ابيات

مفهومة فافك لو جلست ساعة الى مجنون ابله لجرى لسانه
بجملة او جمل تلمح فيها اثر العقل . وان كان لم يفكر
في ميلها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الداهل المضطرب
انتباهات فجائية لعلها من اقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع
صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفا في الدهن واضطرابا في جهاز
التفكير لم تنفع في معالجتهم كثرة القراءة والاطلاع على خير ما
انتجت العقول . وقد يعلم القارئ او لا يعلم ان الاطلاع قلما يجدى
اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الدهن غير مستو او صالح « لهضم »
ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد
بالموجود . كالمعدة الضعيفة لا ينفعها ان تزحمها بالوان الطعام
وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول
من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه
حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه ايضا) بذلك
الشره العقلى الذى يجعله راغبا في ان يفكر كل فكر » ولكن ما به
ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة
كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكرى ولعله من اسباب
ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب المغاريت وقصص السحرة
والردة والجان لما وقع في نفسه من ان هذا حقيق ان يقوى خياله
ويجعل له اجنحة يحلق بها في سماء الشعر وفاته هو وامثاله ان
الخيال يجب ان يطير بجناحين من الحفيفة وان كل كلام ليس
مصدره صحة الادراك وصدق النظر في استشفاف العلاقات لا يكون
الا هراء لا محل له في الادب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان
العواطف وضعف الروح تعيش في عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفي العمق
لان العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء
ولكن مع الوضوح والجلال اذ ايها احوج الى النور يراق عليه
ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهي تمتد وتمثر به الرجل وهي تخطو

أم ما يغوص عليه المرء في أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل أما على
المعجز عن الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبها .
على أنه من افحش الخطأ واضره بالاستعداد واشده افسادا
للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة
النسور إذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمل فان العقل الصغير
إذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل
الى غايته من طريقه ولا يجس الحاجة الى قوة العقل الكبير .
وقد ركب شكري هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن وأراد أن
يكون شاعرا وكاتباً من الطراز الاول وظن أن الاجتهاد يغني غناء
الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقي على
خلقه الوداع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال
البسه اياها .

ولما كان السقم في الكلام مرده السقم في الدهن فسنبدأ نقدنا
بالدليل الضمني المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب
ببيان الفساد الذي اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصي سرقاته
وافاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

* * *

لا نقول ان شكري مجنون فنحن ارفق به من أن نصدمه بذلك
واعرف بحاله وبامراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء
والتذكير والالاحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه ابدا الى هذا الخاطر
— خاطر الجنون — وان فكرته مائلة لنحو حياته والخسوف منه
منفص عليه كل لذاته وعلااته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن
أو يقال له أنه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك
والبيض والمخ واشباه هذه الالوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع
منه يدخل في روعه أنه هو المعنى به فيمتقع — ولا يخفى أن اتجاه
الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطيء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدواته وفي طعامه وشرابه
ويقظته ومنامه وفي اقواله وكتابه من شعر ونثر - او منظوم
ومنثور على الاصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده
في البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . واكثر اهل
الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشلوذ والجنون
والعبقرية بسبيل وهما في الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما
متماثلتان ، فالعبرى ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض
ابدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والاصوات والالوان لا تظن
اليها عقول الاوساط . والمجنون في ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع
مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط في بعض نواحي المخ او
فتورها او قابليتها للتنبيه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا
والجنون عبقرية . وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولمحوها
وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير ان جنون العبقرية منتج يخرج
- كما يقول افلاطون - الشعراء والمخترعين والانبياء اما الجنون
المألوف فهذا عقيم نعيد صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغي أن يتوهم
احد ان العبقرية هي الجنون فليس افحش من هذا الخطا ولا اقل
من ذلك الظن لان العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العسادي
وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب في التوازن العقلي
والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير
راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل
عليها وبرهقها به كان يكتب جزءا من ديوانه في شهر واحد حتى
كانما هو ماجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه في وقت محدود .
وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه
بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بتصحيحتنا ولم يعط نفسه حظها من
الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج
للناس الجزء تلو الجزء كانما يخشى أن يخب به المرض ويوجب

بمقله الداء فلا يستطيع أن يصدق بالشعر ويسخر بالناس « ١١ »
وماذا أجناء كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع في بشر
فلا هو « صمدح » ولو في حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء
عقله .

والى اقراء امثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .
حنيني الى وجه الحبيب جنون جنون يهيج القلب وهو شجون
وقال من قصيدة الدفين الحى :

لهاج هياج الشر فى الاسر طرفه وادركه حتى الممات جنون
وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عندى جئت بالمقل والحجى
وان لم تجيء فالقلب مجنون فاجر
ولكن وجعنى منك جن جنونه لها انا من حبى بحسنتك هاجر
وقال فى « طبع الانسان » :

ان بالراء جنونا جاعلا نوبة للشر فيه تحتم
لا ينال البرء من نوبتسه او يذيع الشر منه والالم
وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت ممدى عن
لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر
اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون
ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

عسى ان تجسّن النفس فيكم جنسونها
فلا ذكورة تصبى ولا فكر يخطى
فان جنسون النفس سسمد وراحة
وان عنساء الحى ذاك التذكر

فانفسك حتى لست ادري اعاش
على الارض تسمى ام دفين مفسر
فان يبلغ الحب الجنسون فلا تلم
اما كل مجنون على الهجر يطر
وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان في وسعه ان يطلب
الموت او السلوان ولكنه لشقوته يحسب ان المجانين سعداء لا يكره
احدا منهم خاطر ملح او وهم جائم ولو انه سال طبيبه لعرف منه
ان بعض المجانين يعذبون انفسهم بما يتخيلون وانهم كثيرا ما يخلقون
لانفسهم جحيما من الالهام يصلونها ،على انا لا ندري من اين جاءه
ولماذا ظن ان حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك
ولكنه معذور على هذه السفطة على كل حال والناس كذلك
معذرون اذا لم يقرعوا نظمهم .

وقال من قصيدة « صنم الملاحه » :

بلغ الغرام الى الجنون فلا عتاب ولا نعم

وقال من قصيدة « الحسود » :

واندركه مس الجنون واظلمت عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك » :

بالله ما تفعل لو بلغوك انى عرتنى جنة من هواك

وكيف لا يذهب لبرو الهوى اذا مضت لى اشهر لا اراك

ومن قصيدة « انا مجنون بحبك » :

انا مجنون بحبك فازل غلة صبيك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنسون خابل يزدرى المرء له وقع التهم

اتما الحب جنون وجوى ورجاء واجتسرام ونعم

وقد ترقى في هذا المعنى من القول بانه هو مجنون الى نسبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر ايضا . قال من
قصيدة « جنون الحياة » :

لا ترع فالدهر مجنون كل حي فيه مغبون
جن من حول ومقدرة وكلنا ذو الحول مجنون
فتضحك ثم قل ابدا ان هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين كل حي فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكننت أعد الحسن فيك فطانة وان جنوني في هواك صواب

ومن قصيدة « وحى الشعر » :

كجنون النعيم والبؤس فيهم وهي تبسوا لغيرهم كذكاء
وفسر البيت بقوله « أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن
من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فانا أشهد الله والناس
انى لا احس هذا الجنون . ولكنى احسبه سيئكر على الشاعرية
لهذا على الأقل . وقال من قصيدة « مشترى الأحلام » :

لو يستحيل المسحيل على الورى

واتأل من احلامه ما اطلب

لجننت جنسة قادر متحكم

يرضى على ههنا الآثام ويفض

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من

قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجل المجنون من حزن

لشد ما نال منك البؤس يا رجل

حتام تنكر حقاً غير مشته

لا يكره الحق الا من به دخل

وهذا تقييد مجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه إياه
راجعاً إلى أي سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفائك جنـة
فان رام يوماً قتلتم ما تائمنا
فاسقى جنونى من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلباً مكلماً

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك معه وأدرك أن جنونه قد يدفعه إلى
الاجرام فتحرى البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يفرى حبيبه بالهجر
والهجر يزيد في جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة وإلى أي حال
ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب إلا جزءاً من ديوانه
لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما في الأجزاء الأخرى . ولم
ننقل من شعره إلا ما كان لفظ الجنون فيه صريحاً لا معناه والا فان
هناك إبياتاً عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاسنتكم
حتى يخال حديثى لغو نشوان
نشوان ليس له عقل فيسـكته
الحب خمري وليس الخمر من شانى
فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقوله
وهو آدمي :

واهتف طول الليل باسمك جاهداً
وهاجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا في الهتاف ويعترف بأن هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن أنفسهم

ضاع منهم تحت أشلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصود على جولان هذا الخاطر في نفسه وملازمته إياه أبدا وعلى الصباح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب في الطريق كالسكاري والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

في كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصود على ذلك فإن شكري على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو - تساهلا في التعبير - مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رات ما لا وجود له في الأذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الأصوات وقد لا يصحبه أي اضطراب محسوس في القوى المفكرة وإن كان لا شك مع ذلك في أنه اضطراب محلي في المخ إذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الأذن » أي اعتقاد المصاب أنه سمع أصواتا أو أن أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب في برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسيير في الطرقات وأشباح الأدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بعضها عن بعض وقد عولج
من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد
الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى - أعاده الله من شر ذلك - في الصفحة الثانية
والخمس من الجزء الثالث تعليقاً على بيته هذا :

أو كنود البعر فضيا له وتر في القلب فضى النغم

« ما رأيت القمر إلا أحسست كان نواقيس تطن في أذنى . وإن
الد الانغام رنة الفضة المجوثة » اهـ

فهذا كلام لا مجال فيه للتاويل والتخريج وهى قاطعة فى انه فى
كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى أذنه صوت نواقيس فضية
ولنا ان نلاحظ امورا :

اولها - ان البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لان معناه
مفهوم بدونه

وثانيها - ان ما (يطن) فى أذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس
له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض - بتقريره ان الد الانغام
رنة الفضة المجوثة خصوصا وان رنتها « ليست » الد « الانغام »
وان كانت « اخلص » الأصوات واصفاها والفرق كبير بين صفاء
الصوت وبين حلاوة النغم . نعم ان الصفاء من عوامل الحلاوة فى
النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار - مع التسامح فى هذا الرنة
نقمة - لا يمكن ان يعد « الد » الانغام .

وثالثها - انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى أذنه هذا الصوت
ذو الرنين ويمرر الخاصة واهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء
القمر » مقرون فى اذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهديان كما
يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء في الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب في طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول في هذا الباب ولكتا قد اطلنا وان كان التحليل ممعنا مغريا بالاسباب والافاضة ولذلك نجتزئ بملاحظة اخرى وهى ان لشكرى كتابين غير دواوينه احدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بانه « احلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبها روسيا فى رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى ان حلاقا ذبح زيونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فاغراه هذا الشبه بلذبحه بموساه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا ان نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى واشرنا عليه بالانصراف من كل تأليف او نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأن جهوده عقيمة وتمبسه ضائع ثانيا ولم تكن امامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلمله الان وقد رأى كثرتها وتوافرها - وهى كثرة مروعة - يرجع الى اينما ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليك أن يحمده الناس منه فلا يحاول أن يثالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الا بكم الا وهى قادرة على الزامه اليكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجزء الثاني

أدب الضعف

الادعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا الفطر ولا يعدو جمهور الناس معهم ان يلحظوهم كما يلحظ احدنا المناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخدمه او ربة بيته ازيلي هذا واتى عليه بالكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى امره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه وتقيضه . يظهر الدعى فيستولى على الميدان ويخسر الناس له سجدا الى الاذقان ويباهون به الامم والازمان فان سالتهم في ذلك وعلمته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر احوالوا وتهربوا وفتحوا ابوابا من التعسف لا تستند الى اصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا في اوهامهم الى آخر الابد كأنما التوق الى ان تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تتانى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عيساء والبلاء عظيم والمصائب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون ان يصغوا لما يقال لهم ولا ان

يفتحوا للذي تبين اعينهم او ياخذوا لانفسهم بالتى هى املا لا يديهم
واعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل امر فى عمياء قصارا هم ان
يكرروا الفاظا لا يعرفون لشيء منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام
ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبينا . وما لهؤلاء تكتب ولا من
اجلهم نتكلف ان تكوى عرق الباطل ونخرس السنة الكذب والتدجيل
وتنقض بناء المنكرات والشناعات التى اقامها نفر من الادعياء نشاوا
فى غفلة الزمن فان من المستحيل ان نرجع بهم الى سنن التفكير
والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكنا نكتب ونشرح وننصب
الميزان لن يمس انه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما
فيها لا ليغمضهما دونها واوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين
النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك
حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يحب ان يستسقى الا من
المصب او ياخذ الا من المعدن مؤثرة الغيبة والهزيمة والفشل على
احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن
طباعها وقلب الفطر الى اضدادها - لهؤلاء الذين هم معقد الامل
ومناطق الرجاء تفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها
ونمدها ونرفع لميونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى
تكون أضوا لها واكشف عنها صابرين على طول تأملهم مقتبطين بعدم
قناعتهم الا بالاقتناع . اذ ما خير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة
مستبين ؟ ؟

وليس فى مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن
الجرى مع الاوهام والذهاب الى اشنع الشناعات واسوأ المنكرات
ما عرض لهم فى الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ
وجعل يتبع بعضها بعضا من غير ان يتوخى فى تنسيقها معنى فقد
صنع ما يلزم به كاتب وشاعرا ومؤلفا يقض الزمان بمثله ويعبى
الامم مكان نده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى
تنبيه او ان يتجشم احد منا اقامة الحججة عليه والتدليل مع التبسط

في الايضاح وتحري البساطة في سوق المبادئ وتفصيل الاصول
وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا راونا ندلى
بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار
دستورا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبدائة غنيان ؟ أفلا
يعلمون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهي تحسبها أدوات
الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب
وعنى الميون واعوجاج الازهان .

ولماذا لا يرون من أعجب المعجب ذلك الذي عليه الادعياء
المقلدون في امر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد في
الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى
الذي تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغريبين اذا
اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التي تتمخض عنها الطبائع
المسوخة والازهان المنتكسة ؟ ان الجيد في لغة جيد في مساوها
والادب شيء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لان مرده الى اصول
الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك
الفث غث في كل لغة في أي قالب صيبتة وسببته وبأى لسان
نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من
الاقبال ما قوى الآمال في صلاح الحال وهاكم صنما آخر من
معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطى

عن السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الأول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالي دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنيننا هذا الأمر الا من حيث دلالة على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وامثاله على تأثير الالتاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزقوا الى الناس عرائس افكارهم او يشيعوا الى قبور صدورهم اموات خيالهم . واذا كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد ان يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنيننا من السيد ما خطه يراعه الرشيق واملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق ان يكون على ظاهر الامر مقدما على سواء وحريا بان يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر روياته وقصصه فى اثر هذا وذاك على اننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخرة قبل الاوان توفية للحقوق وبياننا للفروق وكشفنا عن الحال وايقافا للقارىء على مبلغ سعة المجال .

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة واربعين عاما من ابوين كريمين كرما يشبه ان اولهما ... ولا ندرى أيهما يعنى ولكنه احدهما على كل

حال - ينتهى تسببه الى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة
ومنافس آدم بكثرة النسل « تفاقم » اللرية . وثانيهما الى اسرة
جوريجى التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤئل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظه النقد ان يزيد
على هذا فى بيان نسبه الا اشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا
تحتل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد فى مشغلوطن من مدن الوجه
القبلى فى جنوب مصر » وأن أسرته هناك « مشهورة بالشرف
والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته
تهدى الى معرفة ما هناك ولكننا نحسبه خشى أن يفضل القسارىء
ويختلط عليه الأمر فيتوهمه مقدوظا به اليانا من المربخ - والحق
ان له العلى فى خوفه هذا اذ ليس فى كتابته ما يدل على انه مثل
ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء
لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته
فنقول وليته اذ عنى بهذه التفاصيل البديهة كان قد ساق اليانا
ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير اثر العوامل الوراثة فى
تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بأنها « انقباض عن الناس ووحشة
يحسبها الرأى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزاة والوقار
والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة
من لا تمجبه اخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره . وعفة حتى من مديده
الى أبويه ومسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم
يظنه الظان مجزا وضعفا فاذا غضب وقليل ما يفعل فهو الليث قوة
وشجاعة وإيمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب
باب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد
فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمة ثم
ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها
كأنما المرزوء سواء وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين ولا أحقر
فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (١) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم
الذى يرضى فيه عنى الجاهل او يعجب برأى البليد الى آخر ما لا
يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .
ولكننا بشنا لتقصيره في ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة
ومبلغ الاكتساب في هذه الفضائل وفي كل هذا الادب الجرم الذى
جعلته - كما يقول - الكاتب الفريد الذى يحافظ على اسلوبه
البليغ في جميع حالاته وشئونه سواء في ذلك المعانى المطروقة
لكتاب العربية الاولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها
اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عاربه
من عواربه .

وليس في أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببلدة ممن هو
كالسيد الشريف المسبب لا يحدث الا عن نفسه ولا يصدر فيما
يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن
انفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجهم ووصف آباءهم . وما للقراء
ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما اقدت في سماجة
ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا في تاريخ حياته
يقع في أكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر أنه اورد اسم أبيه حتى
ولا في سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد
جعل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه
ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعنى قراء
التراجم . أما الاجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا
يستطيع أن يعرف عنهم أكثر من الأسماء فخير له وللناس أن يسدل
عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل أو العجز تقيصة
المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه ان فاتنا هذا الذى كنا نحب ان لا تخلو منه الترجمة
ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتب
السيد الشريف الجليل العربى التركى الحسينى الجورجى

المنفلوطى الكفاية فانه اعزه الله لم يالنا كشفا عن آرائه واخلاقه
وفضائله ومحامده واسرار نفسه ودخائل صدره وهو اجس خاطره
ولم يفسن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف ياكل
ويشرب ويلهو ويلعب ولاى شيء يطرب ومم يفضب وماذا يمقت
وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه
في غنى عما يبدى فيه في ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها
لنفسه حتى نسي انها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويا لها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه
بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف أيها القارئ من أى
ضروب الشجاعة هذه فان لها لانواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة
الايمان ولا شجاعة بيعتها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا
شجاعة الطيش وانما هى شجاعة . . الطعام !! نعم والموائد المكدودة
والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارئ اذ تنكر هذا القول علينا
وتمط شفتيك وتزوى ما به عينيك لتدل بذلك على افحش الجهل
واقضحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى
ان يخشى السيد الشريف العسيب بالنسيب بعد ان يجمع حول
مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض
الورقات القذرة ويملا لهم بطونهم كنت حقيقا ان تفهم ما نريد
من شجاعة الطعام . اترك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم
الفم تستحي العين » ؟ وماذا صنع السيد اكثر من الجرى على
السنن العامية في كل شيء ؟ في كتابته وفي معاشرته وفي اتقائه الالسن
- وهذا هو السر - فاعلمه - في انك لا تسمع به في هذه الورقات
ولا تراها تلهج به مادحة ولا قاذحة .

ومن ظريف ما ترويه في هذا المقام ان السيد سمع بعزمنا على
اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وارسل يلح علينا في
« تشريفه » فلم ينقلنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف القدر
ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما احسن المصائب في بعض
الاحيان !

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق ابن يعد من أجله كاتب و أدبيا الا اذا كان الادب كله عبثا في عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا الماثقين يقول : « ان في أسلوبه حلاوة » ولو أنه قال « نعومة » لكان أقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لأصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجي فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذلك الذي لا نرجو منه خيرا . قال مهيأ :

فيارب قلل دمي مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلي
هنيئا لحبك - ذات الوشاح . دم طل فيسه بلا عاقل
وحبي ذكرك حتى لثمت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لين الانحدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نشرته وتأملت ماتحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر أن وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما في الأمر أن صاحبه أراد القول في هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط في الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا في
اللين وذهابا الى اقصى المدى في الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا
دم مظلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول انه
لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو
من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة ان تتصور مثل
هذا المنظر حادثا واقعا . وامثال هذا كثير في غزل المقلدين والمباشرين
لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا في سبيله
الرجولة والعقل . ومهيار بعد من الفحول او هو على آثارهم ماض
وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين
مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين - او الفرس فقد كانوا
لا يعرفون الا عربيا وعجميا . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعن الصريح اذا غشى تجار الاشعار ما جلبوا

يشكرها الفرس في مديحك للمعنى وترضى لسانها العرب

فكانه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شأنه وذهاب
غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى في حلاوته وعدوبته
كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نرحا

وقوله :

آه على الرقة في خسودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالمتأخرين
والمباشرين الذين افتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل
للانسان انهم كانوا يتبارون ليروا ايهم اعظم تطليقا للعقل وايسانا
بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . اما الحلاوة فتجدها في مثل
قول الشريف الرضى :

انت النعيم للقلبي والمذاب له فما امرك في قلبي واحسلا

وقوله من القصيدة عينها :

عنسدى رسائل شوق لست أذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فلا

وليس يمنعك أن تتذوقها من البيت الأول ذكر المראה فإنها هنا أخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي أجدى وأنفع في تبين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم أحد أننا قوم افترنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا أن يظن بنا الإعلان عن النفس وأن كان لا غضاضة في ذلك ما دمنا ندمو إلى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة إلى ما ترك من التنوع في الأطراد وإلى احساس الشاعر باللذذة والحسن احساسا هو مزيج من الإعجاب والطلب . خذ البيت الأول مثلا « أنت النعيم » وتأمل أطراد العاطفة في مصراعيه وتوازن قوتها في شطريه وكيف أنه مع هذا الأطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدرك . ويربك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا أكثر ولا أقل ولو أنه كان قال « أنت النعيم لقلبي والجحيم له .. فما أمرك .. الخ » لأحسست التناثر واختلاف القوة في الشطرين ولما استعديت منه قوله « فما أمرك الخ » بهذا لفظة الجحيم . وتأمل في عقب هذا قول المسكين شكري يصف جميلا ويبالغ في حسنه :

كانما صلفكم كيما يحبكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت - فأتك تحس إذ تنتقل من الشطر الأول إلى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا أطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتاً وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثاني وانظر تحريره الدقة في العبارة عن مقصوده تحريرا أكسب البيت الاستواء والأطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الالفاظ واشدها
من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والتزاع وغيرها مما
لم يكن يعجز الشريف عن حشره في البيت لو كان مثلهم فساد ذوق
وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الإعجاب وهو من
أخف مراتب الحب وأولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة
ومن اشتهاه التغبيل اشتهاه لا ينبو مع ذلك في زمام الإرادة
فالتناسب تام بين أنواع المعاني والاحساسات المتنوعة التي ضمنها
البيت - من إعجاب واحتشام واشتهاه والتشاكل كامل والاستواء
بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلية وسلامة الذوق وحسن
المعنى في الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ إلا للفم ومراعاة ذلك
وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع
فقدان قصيدة الشريف الرضى التي يقول في مطلعها :

يا ليلة السفح إلا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم
بقصيدة الطفرائي التي احتذاه فيها وترسم مواقع أقدامه
وليس يسعنا إيراد القصيدتين ولكننا نجتزئ بذكر البيت من
قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطفرائي مجازاة له . يقول
الشريف :

قدرت منها بلا رقيب ولا حنر
على الذي نام عن ليلى ولم أتم
فياخذه الطفرائي ويخرج صاحبيه أن كان لهما وجود :
يا صاحبي أعينسني على كلفي
بمن تناوم عن ليلى ولم أتم
ويقول الشريف بصف ليلته معها :
وأمست الريح كالغري تجاذبنا
على الكتيب فضول الربط واللم

يشى بنا الطيب احيسانا وآوة

يفيئتنا البرق مجتازا على اقصم

فيستور عليه الطفرائي ويصوغهما في أربعة ابيات مرذولة :
بتنا وبات الصبا وهنا يفازلنا وفرشنا الرمل وشته يدالديم
والليل يكتم سري والصبا كف بنشر ما كاد تطويه يد الظلم
ياتفحة الريح بانت بين ارحلنا بالجزع تسلك بين العذر واللمم
نهيت طيبا واغريت الوشاة بنا يا حبنا انت لو لم تقتدى بهم
ويقول الشريف :

واكنم الصبح عنهما وهي غافلة

حتى تكلم عصفور على علم

فيضمه الطفرائي في هذا البيت المتحوس :

وغاب عنا غراب اليبين ليلتنا فتاب عنه عصفير على علم
ويقول الشريف :

يولع الغل بردينا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم
فيمسحه الطفرائي هكذا :
واذنتنا بقرب الفجر ناشئة بانت تعرش بين الضال والسلم
ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين في ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع الى قدم
فيأبى الا ان يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنشور السخيف :
ورق لي قلبه القاسى ومكننى مما اريد فلم آثم ولم ألم
ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبي والمصاب له فما امرك في قلبي واحلاله
فلا يرى الطفرائي ان يتركه في قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى في الجوى حتى انست به

فهو السرارة يطو طعمها بقمي

فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادى في الزمان هوى

الا ذكرت هوى ايامنا القدم

والذكرى طيعة ولكن فساد ذوق القلد الطفرائي يابى له
الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم والحب وقف على احبابنا القدم
الخ الخ

وستان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء واييات الطفرائي لا يسبقها
المراء الا بعناء . والفرق بين الكلامين اوضح من ان يحتاج الى جلاء .
ولعل القارئ قد رأى مما اودرنا ان الحلاوة لا تتفق مع العبث
والتكلف ولا مع اضطرار العاطفة ووقدتها .

ولست بواحد شيئا من هذه الحلاوة في كلام المنفلوطى سواء
في ذلك شعره ونثره لانه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع
العبارة عنها وقد اسلفنا ان وصف اسلوبه بالنمومة اقرب الى
الصواب ولكنه ليس كل الصواب لانه متجاوز ذلك ذاهب الى ادنى
منه وليس ادنى من ذلك الا الانوثة وهى احط واضر ما يصيب الادب
ولكنها مع الاسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسبقونها
ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم اياها ان يشجعوه ويفروه بالكلام
في ابراز ما ليس اقل منه للرجولة ولا اعصف .

قال المنفلوطى في مقدمة مبراته :

« الاشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بانس مثلى ان
يمحو شيئا من يؤسهم وشقائهم فلا اقل من ان اسكب بين ايديهم
هذه العبرات عليهم يجدون في بكائى عليهم تعزية وسوى . »

واحسبه توقع ان يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا
القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق مطفا على المساكين
امثاله . ولو شاء لقال ان الناس جميعا كذلك ان كان يريد ان يذهب
الى هذا المعنى لان كل امرئ طالب محروم . ولكن وظيفة المراء في

الحياة ليست أن يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هي تنتهي إذا امتنع وبطل .

وهذا شيء يرفقه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن إليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمي على ذلك وإثباته في مظاهره ومن آيات هذه الفطنة — فطنة عميقة مستولية على النفس — أنهم قالوا أن في الوجود قوتين متنازعتين أبدا وقوة الشر التي تطفئ بالليل وتجعل في الرعد وتقدس بالصوامق وتبتلى بالجذب والمحل والاباء والارزاء والفناء وما يدخل في ذلك ويتفرغ منه ، وقوة الخير التي تسبح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة إلى آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمز .

ومثل هذا واضح في جميع الأديان وأن تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما إبليس أن فكوت إلا اسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ في خرافات العجائز وقصصهن حتى لاهدنا هذا وفي أوهام العامة التي تعزو الامراض إلى فعل الشياطين وفي خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير في دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة وتهيب القفار والفساب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ اليس هذا اثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذي يحسه الاطفال والعامة والذي قطن اليه الاقدمون السذج بفرائضهم وفطرتهم السليمة لا يدركه المنفلوطي المسكين الذي يحسب أن ليس له من عمل في الدنيا إلا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجواله في جوف الثرى .

ومضى قائل يقول : ان هذا منه فرط حب للانسانية وهي فضيلة لا يقبلها وذيلة ان صاحبها بالغ وغلا في الامر لانه انما يفرق في النزاع ليبعد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون ابلغ في التأثير ويتناهى في الدعوى استندناء للفاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التفضيل او الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لان الانتصاف منها لا يتأتى الا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هي اخلاق المنفلوطى ؟ هي بالفاظه - او ان جادل فيما ارضى ان يوصف به من الالفاظ - انقباض من الناس ووحشة - هفة حتى من مد يده الى ابويه - كرم في الخلق طالما كان سببا في وصول الاذى اليه - حلم يظنه الظان مجرا وضعفا - صمت طويل بحسبه الناظر هيا - ما رؤى يوما من الايام ملما بما يفسد عليه دينه او مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويظير رشد الحليم (١) مات له طفلان في اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمة على شدة تهالكه وجدا عليهما - وليس احقر في نظره من المادحين له ولا اصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه - لو ان الناس جميعا اجتمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما نناه ذلك منها ولو انهم اتفقوا على راي مناقض لرايه لما نال ذلك من عقيدته ليس ابغض اليه من الكذب - يحب حتى العتاب المر والتقرير المؤلم ما دام المتكلم صادقا - يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض - ان كان في اخلاقه مأخذ ففي هذا الخلق خلق النفرة من

(١) قال الشيخ الشافعي النافذ الاسلامي : من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث وليس له عقل يفقده .

الناس والمعجز من احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم - وطنى بتهالك
وجدا فى حب وطنه ويلدى الدمع حزنا عليه .. الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراءة معدومة النظر فى التقحم على حياة
الناس بهذه التبعات الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية -
فيلانثروبست - وان أسرته مشهورة بالتقوى وان أبشاه يموتون
فى غير السن التى يكون فيها الإهمال والجهل سبب الوفاة المباشر
فى الأغلب والأعم .

فكيف تصف هذه الاخلاق ايها القارىء ؟ اما أن تكون مصدقها
فننظر فى دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايًا لك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس
متفرقة ! ولكن الامر اكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هالك دلالة
هذه الاخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الأغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان
الفرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد فى حالة غير
عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش
ان يكون البخل من أعضاء ما يسمى (فيرى) أسرة الأمراض
العصبية . وحب الانسانية - فيلانثروبى - نفسه مما يجرى هذا
المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجن جبارا فى بيته وكان له
ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية أيضا وشرح هذه الحقائق
فيما أسلفنا عليه القول على الإرادة . وذلك أن بعض مراكز المخ -
واحدا أو أكثر - تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات أو الإجابة عليها
فتسود فى حيز الإدراك طوائف معينة من الآراء أو تصير الغلبة
لنزعات معينة مستقلة عن الإدراك . وهناك قوم - كما يقول المثل -
لا يصفون الى داعى العقل ولا يحسون الا أنفسهم ومصالحهم .
وآخرون يبلغ من تضحياتهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا -

بغير مبرر معقول - عن كل متعمهم وكل ما ملكت إيمانهم إفائدة
جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالمعمودين أو
المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية
تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبي وعلى العكس
من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب
الرأى » .

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنها كتبها
صاحبها لما نحن فى صدده وإيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ أن تؤمن
بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلل القريبة فيلزمه
حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى أعصابهم
أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وإن ما به ليس إثارا وحبا للإنسانية
متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل انوثة يتوخاها فى الكتابة
وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم
واستصغار لأحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبهت بأحد الحكمين فليختر القارىء لهذا الكاتب
أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد
واحدة .

« الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو
شيئا من بؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما أحلكها وأحساس بالعجز المطلق
والقصور التام . وما أبعد هذا من الكتابة الطبيعية المعقولة التى
تفشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى
حياته أو فى علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتى لا تمنع أن
يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الأمور
منادق الوزن لأقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلاً من يحتسب
طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأس الرشد من سماته أو من
يرى نفسه مشبوذا من الناس لفقره أو ضعة قومية فى أبيه أو من

يعنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء
اليأسه التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجرة ودار
أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أى تحليل لها من الأحوال التى
تكتنفه هو أو مسواه ؟ وأى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء
والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذلك فتفشل
ولا يخرج الأمر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كان
يكون مكسورا أو أن تكون أنبويته مسدودة أو أن تكون أسنانه بالية
وأما أن يكون اللدب ذنب القفل كان يكون لسانه قد سقط فى جوفه
أو أن يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون
الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن
هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل
أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب
فى هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .
أهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو احد فرضين :
أن يشير غضبى رجل مثلا بعمل مسيء فإذا كان احساسى مناسباً
لدرجة الإساءة ومتكافئاً معها كان ذلك منى طبيعياً ولكن لنفرض أن
الأمر جاوز المعقول وأن الغضب هاجه ما ليس فيه إساءة وهو
الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل ونقول أما أن تكون
الظواهر الخداعة أو الاتباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد
الى الإساءة وتعمد الإيذاء فيشير فى نفسى ما يحيط بى مثل ما يشير
الإيذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الإحساس والعمل راجعا
الى الوسط والعيب عيب القفل - أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود
به إلا الخير كان يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت
فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعاتيه نخرج عن طورك وبلغ
غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف - أى لا يلائمها وفى هذه
الحالة يكون عدم التناسب بين الإحساس والظروف مرجعه الى

هلة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يبيع فاذا
اصبحت في اليوم التالي وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهذا ثأرك
وبذلك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن
اذا ظل غضبك في الصباح كما كان في المساء وطردت الخادم فان
المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح
عجزا عن إعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة او
الملاءمة مضطربة .

وهذان المثالان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على
المعوم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة
احوالا ليس لها المرء بكفاءة او هو يجهلها او لا يعرفها معرفتها وفي
كلتا هاتين الحالتين يكون العيب في القفل او المفتاح ولكن اذا كانت
البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع ان يكافحه الرجل
العادي وكان المرء قادرا على الواجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا
ان يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل في هذه الحالة لا يكون مرجعه
الى عدم كفاية او عيب في هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية
الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد
تصحيبه ابدأ ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب
في السلوك والاضطراب في الإدراك ويدخل في هذا ما يعتور الفكر
والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهي اشياء
على اوضح ما تكون في قصص المنفلوطي كما ستري فيما يلي .

العبرات « قصة البستم »

وتعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بداناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثلة الضمفاء الداهيين مذهب التصنع والافراط في الرقة والأتونة والباقي موضوع وهو في كليهما ملفق مستحيل التلفيقات - حتى فيما هو مترجم منها يابى له ذهنه المنتكس الا ان يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته في كل قصة تقريبا بينما هو جالس في مكتبه الذي كأنما صار يلتقي كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة اثيرة اذا به يسمع انينا او حنينا او صوتا خافتا او توجعا او زفيرا او نهيقا او شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات اوهامه ومنكرات احلامه - من العمر ملقى يتوجع على سريره او حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر اتونته ثم يموت الفتى - وهو ما لا يدم منه في كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على ابطاله - فيفسله ويلفه في الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه ألتى كأنها لها « زر » في تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتتحدر وتسيل وان كان لم يك على طفليه اللذين ماتا في اسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحائزى التداية وللادب الذى هو حياة الأمم
وباعث القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافزها الى اجل
المساعى ! لقد كان المنفلوطى يستطيع ان يتعظ بمصر ابطاله المخشين
— ان جاز الجمع بين النعتين — وبموتهم فى شرح الشباب وميعة العمر
وكان فى وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض
نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله
وان اخوف ما نخاف على هذه الأمة ان تجد هذه الجرائم ترى
صالحا فى نفوسها فى وقت هى احوج ما تكون فيه الى من يبلر فيها
بدور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالماني رواية « احزان فرتر » وهو فى التاسعة
عشرة من عمره اى قبل ان ينضج ويستكمل الرجولة فراجت
واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع
فى كل زاوية فى العالم الغربى وتقلت الى جميع اللغات الحية ولكن
واضعها الذى كان حقيقا ان يزهى بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت
اليه باكورة اعمال من اللبوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك
بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة — ظل الى ان
مات لا يندم على شىء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من
عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها
من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟ لان فرتر
بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من
ان يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائنا ما كان او ان شئت فقل هى
اهون من ان يكبر المرء امر سعودها ونحوسها الى هذا الحد . وان
مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادراك للأمور وان
لا يستطيع ان يلبس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين
الوسط .

فأين تختبئ العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقف
واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في
الدنيا أشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس
طالعهم ولا نسهم إلى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة
منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عائر
وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمتلأها
دينها بل يؤديه إليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن أقبل
ومعذور أن أخفق

جيتة - تلك الصخرة القائمة في لجج الحياة تنأطحها كل موجة
وتلطمها كل ريح وهي وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات
والأحوال - هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذي قرت
منده ثورة « كارليل » الهائج في ميادين الفكر لا يعرف السكون
ولا يلدوق طعمه إلا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم إحدى روايات
جيتة إلا أن يخضع للجامة ويستفيد لعنائه وألا أن يخرج من
طبيعته - أن صبح هذا التعبير - وينسى جموحه مع المعاني وركضه
في حلبة متوعدة من الأداء فجاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق
المتحدر في سهل دمث من الأرض .

واعمرى ما أبعد البون بين أدب تعليم الحياة المتدفقة وصحة
الإدراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه
العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التي لا تعرف
لها مثيلا في كل عصور الأدب التي مرت بالأمم قاطبة من آرية
وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « البتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها
أن فتى في العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا
فكفله صم وأكرمه وأحسن إليه إحسانه إلى ابنته التي كانت في
مثل عمر الفتى فشبا عشيرى صفاء وخدنى مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن أوصى زوجته أن تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم - أما كما كان هو له أيا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فرغمت أنها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عند خطيبها وأنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وأمرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر وأسودت الدنيا فى عينيه لأنه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فأنسل من البيت ليلا وأكر أن يستشرد ثم سكن الفرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة أشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى أخرى ، ثم شعر بسكون فماد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من اثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين . ثم أن خادمته فى بيت عمه اهتمت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه أن يأتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنسه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع ايها القارئ الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور المافية ليس به شيء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملائمة الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسي أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لأن الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم من مكافحته ولكى يقتنع القارئ بما نذهب اليه نجاوز الأجمال الى التفصيل ،

ارادت امرأة عمه أن تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل ام ولم تكن تعلم ان الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك
ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا اعلم هل كان ما كنت اضمره لابنة عمى فى نفسى ودا واخاء
او حب وغراما ، ولكنى اعلم انه ان كان حبا كان فقد بلا امل او رجاء
فما قلت لها يوما اننى احبها لانى كنت اضمن بها وهى ابنة عمى ورفيقة
صبأى ان اكون اول فاتح لهذا الجرح الاليم فى قلبها ، ولا قدرت
فى نفسى يوما من الايام ان اصل اسباب حياتى باسباب حياتها -
ولا حاولت فى ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع فى مثله
المحبوب ولا فكرت يوما ان استشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها
لا علم اى المنزلتين انزلها من قلبها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك او
منزلة الحبيب فاستعين بارادتها على ارادة ابويها .

فما ذنب امرأة عمه اذا كان قد شاء ان لا يتكلم او يقدر او
يتسقط او يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره
ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان
لها شأن آخر معه ، ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه
بخبيثة نفسه .

اذن فليس فى رغبة امرأة عمه ان تزوج ابنتها شئ يستدعى منه
ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرذ والانسلال تحت
الدجى طلبها اليه ان يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه
على ان تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفتاة ان يربها شئ من
وجوده الى جانبها عند خطيبها ، فانه موقف معقول واحساس
طبيعى . ولا شك ان فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير
بعد ليلة او ليلتين كان خليقا ان يجعله يسيغها . فلماذا انسل واطر
الاستشراد والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد ان سكنت نفسه بلغ من
وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه ان مات ! اليس الواضح البين
انه عجز عن الملازمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزا
ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله
بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه انهم ادراك ، والذي لا يعتا
يتطلب التعارف الجسماني الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذي
لا يدري اهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته ام حب الرجل للمرأة .
ولا يقدر في نفسه ان يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول
ان يعرف ما عندها له او يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام
لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم
ولا يروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذري الذي
لا وجود له في هذه الدنيا الدنية مثلا ليس اعلى منه للحياة - والذين
الدائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس - والانتقياد للمرأة
كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات
حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات
الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية
والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والنحول
والاصفرار والاطراق وتكت الأرض والكلام الذي لا يقوله ولا يفهمه
ماقل والنظرات الساردة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل
ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل اطراف الاصابع
للأصباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامة والتحيزات
الطبيبات المباركات ...

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لا يظلمون على
الحياة الا من منظار المنكرات التي تصفها لهم هذه الروايات
ولا يفكرون او يحسون او يعملون الا على مثال اشخاصها ولا غرابة
في ذلك فان من لا تؤهله تجاربه او معارفه لتصحيح خطأ الروائي
لا يسمعه الا ان يسلم بصدقه ويستمد رأيه في الحياة من كتابته
ويتخذ اشخاصه قدوة يحتذى وتقليد . وهي نتيجة يعلمها من له
اقل المام بعلم النفس وبثأثير الإيحاء لا سيما في الضعفاء والشبان
والنساء ومرضى الأعصاب .

والأكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة التي
أعرف رجلاً بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه
وهواه في صدر أيامه أن ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى أن
يكون على رأس فرقة من « البوليس » السري يطارد المجرمين . ذلك
لأن هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب
في نفوس الاحساسات الطبيعية في نفوس الشبان واخصها الحب
بتنبيهها مركز التوليد قبل الاوان وقبل أن يكون الباعث على الحب
هو النضوج الجنسي في الفرد .

أسلوب المنفلوطى

أما أسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفى سواها فأسلوب رجل لا يبالى من أى مدخل دخل على القارئ ما دام يقدر أن سيصل منه إليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقحه عليه وأذ كان يعرف من نفسه التلغيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقتناع والتأثير بضروب من التاكيد والفلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكلب والتزوير لما وقع فى وهمه من أنه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدهما أن يلقى ساذجا ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وإن العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس إلى آخره دون توقف واعتراض . ومع أن قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فإن فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحد لا يكون الأسلوب أسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة فى كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الإفحاش فى التاكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارئ فى أى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فإن الألفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ . وإنما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا . . أجل جرسه

وهدهاء ، والا لكان ينبغي أن لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلا بد أن يكون وراءها شيء ، وأن المرء يرتب المعاني أولا في نفسه ثم يحدو على ترتيبها الالفاظ وأن كل زيادة في اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هديان يطلبه من أخذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الراى أن راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين أن كان كلمة يستطيع القارئ أن يسقطها بدون خسارة في المعنى أو تعويق لتحسدر الاحساسات أو افقار لغناها - كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فإن العالم اغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزاييا غير حبك الاداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطى لأن اللغة عنده ليستت الزينة يعرضها وحلى يخيل بها لا أداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن أين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه امثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفلوطى وكلهما لا ضرورة اليها ولا داعي الا من الرغبة في تأكيد القلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الأخرى .

- ١ - وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تدوب بين أضلامه (ذوبا) .
- ٢ - فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

- ٢ - ثم لم أزل أراه أو منظوريا على نفسه في قرائشه يئن
(أنين) الوالهة التكللى .
- ٤ - وأتمنى لو استطعت أن أداخله (مداخلة) الصديق
الصديقة .
- ٥ - وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجد .
- ٦ - وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا .
- ٧ - فشعرت براسه يلتهب (التهابا) .
- ٨ - وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه يدينه (موجا) -
يصف نحوله .
- ٩ - فاستفاق قليلا ونظر الى (نظرة) عذبة .
- ١٠ - فتنهد طويلا ونظر الى (نظرة) دامعة .
- ١١ - أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .
- ١٢ - فأنزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .
- ١٣ - ١٥ - فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم
واحد فأنست بها (أنس) الاخ باخته وأحببتها (حبسا)
شديدا .
- ١٦ - ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب
المنون .
- ١٧ - فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كاسها .
- ١٨ - ثم أنسلت من المنزل (أنسلالا) من حيث لا يشعر احد .
- ١٩ - وهكذا فارقت المنزل . . . (فراق) آدم جنته .
- ٢٠ - فرحلت (رحلة) طويلة .
- ٢١ - هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم
له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء - يعنى غرقتسه -
(دورة) سقطت على أثرها فى مكانى .

- ٢٢ - فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .
 ٢٣ - وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت
 ان كبده قد ارفضت .
 ٢٤ - وان الضربة التى اصابته قد سحقته (سحقا) .
 ٢٥ - ٢٦ - اشعر براسى يحترق (احترافا) وبقلبى يدوب
 (ذوبا) .
 ٢٧ - تم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم
 يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم انفسنا هذا
 الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل
 الشبان واحد فى كل كتابه ام هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة
 وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب
 جميعا !

ولعل القارىء لاحظ فيما اوردنا من الامثلة كثرة النعوت
 والاحوال كقوله « خرجت منه - يعنى المنزل - شريدا طريدا حائرا
 ملتاعا » وقوله : « تركنى فقيرا معدما لا املك من متاع الدنيا شيئا »
 وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معسلة »
 وقد يعلم القارىء او لا يعلم ان هذا الاسراف فى النعوت من دلائل
 الضعف وفقر الدهن لان الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى
 مرجوه ان يوافق واحد منها محله وان يقع فى مكانه ولكن المطبوع
 يعرف ماذا يأخذ وما يلقى وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات
 من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع ان يتحرى الدقة
 اذ كان لا يدري اى الرموز اللفظية اكفل بالعبارة النابعة عن المعنى
 المراد فهو من اجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الانفساظ بلا
 حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين اللفاظ فى
 ذاكرته وبرنين الاصداء المتقطعة للاصوات المألوفة . وهناك امر آخر

وهو أن الترادف في اللغة من الأكاذيب الشائعة إذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحداً على وجه الضبط . وما من مترادفين يزعم الزاعمون أنهما سواء في المدلول إلا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر ، فإذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعني على التحقيق وأي مدلولاتها المتفاوتة يقصد إليه ويريد منها في فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور أجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما أن العول فيهما ليس على كثرة الألوان بل على أصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ إبانيتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا السخفاء وأشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأي حماسة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلاً يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق إليه وإن كان على هذا لا يحتاج إلا إلى إيسر فكرة وأدنى نظرة وهو أن اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء في ذاته ولا معنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف ويضم الألفاظ بعضها إلى بعض كاللون في ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئاً إلا بعد أن يأتلف مع سواء ويجرى كل إلى أخيه مجراء وليس لغير ذلك مسأغ في العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيصة ، وإلا فإن أحسننا لا يعجزه أن يعمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وإنما التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجعل بالك الى الالفاظ اذا شئت ان تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تأليفه الكلام فان رايته يدور منها في حلقة لا يكاد يمدوها حتى يكر اليها فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والى بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك ان تقرأ له هذا التركيب :
« فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل منى ولا أشقى » - « ومارثى مثل يومها يوم كان أكبر باكية وباكياً » أو هذا التأليف « فما هو ان مرت أيام الحداد حتى رآيت وجوهاً غير الوجوه » - « وما هي الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فائساً نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجاً من هذه الدوائر - والالفاظ كالحجارة في محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها في راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتشبت في انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنث في كتابته وملفق مستحيل التلفيقات ، وأنه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة في العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالفلو والتاكيد في صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا ان ننظر كيف يسوق القصة اى في الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها في تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين ان ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد ان نلقى على هذه القردة درساً فيما يفيد صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة افق الفكر .. وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ما ضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخيب في هذه الامة التى تكبت بهم على

قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ، ولكننا ما قصدنا قط الى امالتهم
صدا هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصر من له طبع من
المنشئ اذا قدحته ورى وهدى من له قلب اذا ارىته راي .

ونعهد لما نريد تبينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما
لا يدركون الشيء او يصددهم فنقول ان ههنا في ناحية من الطريق
شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين
والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزئين الى الشر الى اى هو تابع
له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى
يديه وتقيس النصب الذى ينبغى ان يعاينه الى القدرة اللازمة التى
لا تواتيه فتعطف عليه فى محنته وترئى له فى وقفته وتصوره وانث
ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا
او امره ونواهيه - هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب
المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته او عديم التسلاؤم
والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتشاوبه واستناده
الى الجدران وذهول نظرتة او حواراه مع الباعة وتأنيه الى غايته
وتقطيعه جبينه وهو يدفع فى جلبته او تواريه فى الدروب ووراء
العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره
صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين
متباينتين اذ كنت قد نظرت الى امره وحاله نظرتين مختلفتين كنت
فى الاولى جادا وفى الاخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين
معبرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالفرض منها فوجهة النظر الى
الموضوع والطريقة التى تتحراها لفائتك هى ما نسميه اسلوب
التناول ولا شبهة فى ان المرء ينظر الى الامور من جهات معينة - من
ناحية الجد او الهزل او المألوفية او الشدوذ او الجلال او الحقارة
وليس يعنينا من اى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنيا مقدار ما
فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ
التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لان

القصصى لا تظهر قدرته في المواقف الهادئة السلسة وإنما تستبين وتتضح حيث تكون أشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب ادق النظر واشق التمييز وأصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التي نظر بها فيه ، وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه الى أشخاصه مما هو معهود في الأديمين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خبطه وتخليطه أو اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه في ميزان لم يقصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جرى له هو وأمثاله في خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الأدب لا شأن له بهذا الإهمال أو الجهل والاعتداد فيه إلا بالصلاحيية للحياة . وهى هى ميزانها أبداً واحداً لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فأخرجوا به من هذا الميدان وادهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم الا أن تعدوه كاتباً أدبياً فلا تسمح عن قذفه في هذا الاتون الحامى لنعرف من أى معدن هو . وانتم بعد خلقاء ان ترضوا لصاحبكم ما نرتضى لانفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك محيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيفات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ في حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوائلنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطاً زاخر العباب يضطرب بنا متنه في عشى لياليها المتجاوية بصيحات السك والظلمة الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب في اثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة - أو النظر المخلص الصحيح ان شئت - لا يتفكان وان الفائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون أدبياً وان الأديب لا يكون معمداً ورائداً وان ما وصل اليه من الخصائص .

والفة يجب ان يقطعه الانسان ويمادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط في هوة الابد وجاء زمننا الشادى بملاقة الطبيعة بنفس الادمى الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمريغ وراء السماء سماء وبعد الآباد ابادا ، المصيح الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى - وما اهل هذا الانحدار - فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا في غير هذا الباد ان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكننا وطننا النفس على الجسد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حدائة العهد بالادب الحى .

بحسب المنفلوطى ان تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته - وائى له ان يفهم هذا - انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل ام قصير ونحيل ام بدين وهل فى يده كتاب ام عصا ونائم هو ام جالس !! وانما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والفاطمة المعقدة لا طواهر الاشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسية واغتلاج الخواج الدهنية وماهو بسبيل ذلك .

اما تفصيل المنفلوطى فلا خير فيه بل الخير فى اجتنائه وتحاشيه وليذكر القارىء ان هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدنى انه كان شاهده من غرفة مكتبه المظلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - فى البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الاولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مظلة على بعض نوافذ غرفته فارى امامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب او يكتب فى دفتر او يستظهر قطعة او يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف رأى شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟
ولكن هناك ما هو ادهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرقت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصسباحه وقد اكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما لم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه » .

وهى لا تفيد ولا يمكن ان تفيد شيئا سوى انه يريد ان يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارئ ثم هل تدري انه احس انه موشك ان يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل واليرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاقت وحتى لو كان الوقت وقت الظيرة المتقدمة للمتعة لا يسمح بان يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة او جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرج منه مما اوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير ان يقول ان الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت ايها القارئ هل قنعت ام نريدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافي : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجاً فامرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من اشربة الحمى
فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلاً »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ! لقد سمعنا بمن لولا
مصادفته اياك لم تره وبالجسم لو توثكات عليه لانهدم فاما القميص
من الجلد يموج فيه البدن فلم تكن نتوقع أن يسمعه أحد الا في
مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا النحول احتساح صاحبكم
المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انقص على القارئ كتابنا بكثرة ما أورد من
هذه التليفقات المنكرة ولكنى أسأله الصبر على هذه الجملة أيضاً
— دعا المنفلوطى الطبيب فجلس المريض وهمس في لذه أن العليل
مشرف على الخطر — ولا عجب أن يصير الى هذا المصير الخبيث
بعد أن جرعه المنفلوطى — شراب حماء — ثم دفع اليه المنفلوطى
الأجر واحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين
الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور
الفجر » .

والعادة ان الاشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية)
يحددها الطبيب ولكن الظاهر ان طبيب المنفلوطى امره ان يعطيه
الدواء بعد كل ... بكاء !

ومع ذلك فإذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات
له طفلان في اسبوع واحد « فسكن لهذا الحادث (سكوناً) لم
تخالطه زفرة ولم تمازحه صبرة على قرط حبه لهما وتهالكة وجداً
عليهما » ؟؟؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى
الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواء .

وبعد ان استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب
المنفلوطى عليه وابلا من الأسئلة وهو يعلم انه في سياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال أنت هنا ؟
قلت نعم : أرجو أن تكون أحسن حالا من ذي قبل . قال أرجو أن
أكون كذلك . قلت : هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت وما
مقامك وحدك في هذا المكان وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت
من أهليه وهل تشكو داء ظاهرا (باللعنى) أوهما باطنا وهل لك
أن تحدثني بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه
فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم ويصفه ماذا كان يخشى المسكين لو
فعل وهو ميت لا محالة — بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى
انتهى بين يدي هذا الحانوتى بعد أن قرغ من الحديث الذى يملأ
أحد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه في ساعة الموت !
وما أخلق هذا الأدب الميت بأن يروى عن المجتضرين ! وما أحق
أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

شوقى فى الميزان

٢

مرضنا (شوقى) فى الميزان لأول مرة فارميج به ارتجاجا ضيقا
وايقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حط به لم شال حتى
تعنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه
الشعر ويقول لخلطائه وسماسته : « هبونى لست بالشاعر اليس
لى فخر آخر ادل به !! »

نقول اجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الاثر ما كنا نقدره لاربعة
اجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى اوانه -
اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه فى اسبوع او اقل ونادرا
ما كانت تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له
فى المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على امادة طبعة ، وقد
كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الادب .
فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوى العقول المتزنة
والبظر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية ورايهم
فيه جميل . ومنهم الذكاء الشبان الدارسون او السالكون على
الجادة وكثير بينهم المشايخون بل المنهللون . وطائفة اخرى حظها
من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفومة

بالدهش اقبل منها الى المنافرة والمنت وربما عز على بعضهم أن
يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطا ويتهم ناقدته بالانحراف
فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التفسير ، وفي هؤلاء أمل
لا يضيع ولا سيما بعد هذه الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة
الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة
ان اللام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من ييوسة
الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر هند الياس منه نبذه . واما
التدبر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره
ونعنى فريقى القراء - وبالحرى المتحدثين - الذين لم توجه اليهم
خطابا . وهما فريق المجيبين على الاشاعة الذين يطربون لما
يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويغرمون بالشعر
كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة
ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن
أظرف ما يروى عن احدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى
لعثمان غالب وفيها تسخيف للمنساحة التى اقام لها الأزهار
والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن
- صان الله لشوقى اعجابه - اننا انما انكرنا سكوته عن القطن
وأردنا منه ان يذكره فقال متمجبا : وهل كان القطن (طالعا)
وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بأنهم
شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما
رأينا احرا من سخطهم ولا أكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه
آخر اشارة نلمح اليهم بها .

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن
القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضع له وجهه . أول
الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا اوهن قصائد شوقى

وأكثرها مفاخر . وليس هذا صحيحا فإنا إنما راعينا الحدانة
ليما اخترناه من قصائده وهي لا تقل في اعتقادنا واعتقاده عن
أجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة — كما قلنا في الجزء
الأول — هي أن قراء اليوم غيرهم بالأمس فليس يرضيهم ما كان
فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول
بأننا إنما كنا نصوب الانتقاد الى شاعرية شوقي وذوقه وروح
قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه
المجلة والثاني ، وإذا كان الطعن في الشاعرية والعساهة في الذوق
والاهوجاج في المنهج فاختلف القصائد كيفما كان الموضوع والأسلوب
لا يقدم ولا يؤخر في الحكم على الشاعر . ولعلمهم بعد الاطلاع على
هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث في شعر شوقي سواسية .

أما ثاني الاعتقادين فهو أننا اغفلنا العصا لشوقي وشددنا عليه
النكير . ولهؤلاء نقول أننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه
بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما
أحوج البرهان في هذه الى الشدة وما أقل ما يغنى فيه اللين
والهودة .

ومما استصعبوه أننا قرنا معانيه بمعاني الشحاذين . فيأعجبا !!
كاننا نحن نهينه إذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف
منها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة
لتكريم الشحاذة في أشنع ضروبها !! وإى حق على الناس أن لا
يعرف لنفسه ولا للناس حقا !! فنحن لا نرى للرجل في أنفسنا قدرا
يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما أعلنه في
توطئة الجزء الأول ولا نريد العدول عنه في هذا الجزء ولا في الأجزاء
التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يفضب لكرامة الفكر تداس هوانا
ولضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليفضب علينا ما شاء فإنه
لا يعرف كيف يفضب .

وكاننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التي يغضب لها الناس في آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا تؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال في حاضر الزمان ، لا في سالف العصر والأوان . وفي الجزر البريطانية لا في جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص — لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكر في النفوس الضرم . شاعت شركة جناوزان ان تقتبس منها ابياتا لترويج غذاء مشهور من اغذيتها التي تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من امر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذي قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا ان وكيله — ويدعى المستر هيوز — وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتنان الأبيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لن أصعب الأشياء ان يتخيل الانسان امرا اشد ايلاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة في صياح الباعة على سلعهم . انها لاهانة لا تقل عن السباب القذع لكل من لامست نفسه اقل مساحة من الكرامة الأدبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه علر الشامر وقال : « لا يجب ان ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة — وهندي

ان هذا الاقتباس لا يدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ « وحكم بتفريم الشركة اربعين شلنا تعويضا للاهانة التي الحقنها بالشاعر (١) » .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكها بروايتها عن تلك العنقاء التي يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير في غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفككة .

لمثل ذلك الابتدال يغضب اديب الفريين ويقول محاميهم انه اشد ما يتخيل ابداء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم انف ان يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعنسدنا امير شعراء وجنوده يظنون انهم لا يقتربون ما يحاسبون عليه حين يتسداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح ان التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لان امير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الادبية واربحية الفنون اقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « اسرى مروءة الدني وادنى مروءة السرى » كما كان يقال في عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شسكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولفزا مقلقا ، لان هذا الذي انف كبلنج ان يصنع بشعره على غير علم منه قد صنعه شوقي بشعره مختارا وتعمد ان يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم أبياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بل فقد قال ادامة الله للدكاكين والمائم والأفراح والسهرات :

له ريشة صادق من ريشة تروى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة في المشارق كلها حسنا وفكتها من التقييد

(١) جريدة الديلى كريكىل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

وتعد في الاحسان كل مجيد	تهدي لحسن الخط كل مقصر
من ريشة الالماس عند الفيد	اغلى لدى الكتاب ان ظمروا بها
من ريشة الليثى فوق العود	والذفوف الطرس ان خطرت به
وتقول ايام ابن مقلة عودى	وتكاد يحيى مؤنسا بصريها
مصرية لاستوجبت تمجيدى	لو لم يكن في الامر الا انها

وفي هذه الابيات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة -
شعر لا يتأبه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية
دراجة لبانت ان اخيلته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزويقات
الدلائل وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة
كتابة بانها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى في
قوارع الطرقات « يا جواهر يا عنب » والذي يدلل على ريشة عربية
بانها « حسنت الكتابة في المشارق كلها » انما يرشف من البحر
الذي تغرف منه « الفرص الحقيقية واحسن بضاعة في العالم كله »
و « ولم لم يكن في الامر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب
الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى ان
الباعة لا يفلطون غلطة شوقى فيقولون وهم يعرضون الريشة
ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!
وبعد فان المرء ليزدري العقل الانساني نفسه ان قيل ان هؤلاء
الصماليك الفكريين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى
مزاياء وحملة امائته في الارض . فالادباء في الامم هم عنوان حياتها
الروحية والفكرية ومعمار لمسا تحسه من مفاخر الحياة وقوى
الطبيعة ومعاني الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور
السماوى الذى يفيضه الله من الايات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه
كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة في الامم صفحتها الواضحة
وطبقته المتأزاة الراجعة ، فقل لى رعاك الله اى هذه الطغمة امرا
كان او مأمورا تفخر الامة الحية بأنه صودة ما فى نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما في رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول
بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود ، وتراث مقسم بين
ابتاء آدم . وان المرء ليزهى بأدميته حين يلقى بنفسه في بحار الآداب
الغريبة ، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهايبها
ومتجهاتها وتجاوب اصداؤها واصواتها ... ابواب للكتابة متنوعة ،
ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس
ومشارب . والحياة بين هذه الافكار المشرقة معروضة للنظر في كل
شية من شياتها ، محسوسة في كل حطره من خطراتها ، متكررة
متضاعفة ، شاقة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية
متنطشة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس
تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها .
فكانها نفوس متفرقة لانفس واحدة جالمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الى الادب الذي يدميه اولئك الاميون
العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة
المتطفلون على موائد الخاصة فتري عجبا . ترى هذا عاكفا على
رقمنيه ولعلمه وذاك مديرا الى ربريه وسربه ، ومادحا وهاجيا
ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بال عمران . نفوس ضاوية وعقول
خاوية واخيلة في التراب ثاوية . او كأنما هي الانتقال الى القرار
هاوية . فصدق احدى اثنتين : اما أن أدبا تسمعه من هؤلاء اشرف
ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى اسمى معارج الانسانية . او
انهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة
الطبع وامتياز المدارك ووقور الشعور .

وان من الجنابة على مصر والشين لها ان يسمى هؤلاء نفر بعد
اليوم ادباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة
فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له ان يسخرهم لقضاء غرض من
اغراضه او يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات
اراقهم بعرض لعابنهم وخيولهم !! ووارحمتا « الكلتور المصرى »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وأنشاد الأشعار بأيسر مما يساق
المولوية لتشجيع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل في المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها أحدى
الحواجز التى تصونها أن تترد الى العصور المظلمة وانها عصمة لها
من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو
طائفة ، وانها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة وبحسب
حسابه كل طاغية - فأى عصمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين
والنظاميين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟! إلا أن العصا فى
يد الأكار لانفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه
تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا احجاف
بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطاة القلم المنصب عليهم . ولقد
وجب بل أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان
لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

وكانما شاء القدر أن يبدد حبال شوقى وطلاسمه كلها فى
بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر على
القوم يتنون عليه فيفترون بتشجيعهم له ويروعهام امجابهم به
ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغاني
قاماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء
العلية اذا امجبوا وقيمة استحسنانهم اذا استحسنوا . وانها إن هى
إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة الإدارة

شمزت اللجنة عن ساعديها وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما
يصنع المشعوذ الهندى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب
فأخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملاكي يشاركها في الابتهاج به فيلمهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقي
كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة
مما اظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التثامها اكتفاء
بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول ،

فالقراء يذكرون ان اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين -
وهم اعضاؤها الاخصائيون - اختارت نشيد شوقي واعلنت اسباب
اختيارها له في منشورها وهي انها « انتهت في مناقشتها الى انه
اكفياها واوفاهها بالفرض واجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق
لنشيد قومي » وكذلك علمنا ان حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان
عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء ان الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في
الصحف ينقد النشيد ويقرر انه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد
القومية . ثم انهم يذكرون ان فريقا من اعضاء نادى الموسيقى من
الذين كانوا في لجنة الاغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف ان الاستاذ
انما يتكلم برأيه ، ومعنى هذا انهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين
مصرين على حكم اللجنة مجدين في ابعاد كل مظنة في صلاحية
« النشيد الوطنى المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الاصرار
الصادر من روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي امامهم واقبلوا
يسألونها وهي محتدمة تصفيقا : ما هذا الذى تصفقين له ؟ نعم لم
يعد يكفى في هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون
وراه . وكثر اللفظ بتحيزها واجترا الموسيقيون على الانفساء
يارائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه اول

بك جلبي باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك
فرق الكشافة للكشاف الأعظم ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحكيم
فنشيد شوقي بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض
طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الأمير واعتذر عن سموه بكلمات
وفيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة والقاهها بين الإعجاب والتصفيق
الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الأمير ساعة ذهبية اثرية ثمينة
وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة
جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف
حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدى وألقى قصيدة عامرة انى
فيها على سمو الأمير لتعزيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من
أصبعه خاتما من الماس ووضع في أصبع الاستاذ القصرى وقدم له
سيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة الرغنية بمصر
خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عيش لوحة كتب
عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية
أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم وأقبل المدعوون
وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتنهئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطع . فليتامه القارئ وليتصور اسم
شوقي مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل
منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وتم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون
كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس
مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها في
انصافها وفي الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهب الفتية
التي تنهض اليه لولا أنها أثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة
المثلثي . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية
كوتكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثني عشر ألف فرنك
للسابق من الأدباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة

المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
أفيدري القارىء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم
الفرنسي يسأل عن شأنه فاذا المسئول والسائل في العلم به سواء .
واجمعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل
اشارة اليه او الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه
بعلامة استفهام . ومضت الايام ونسينا خبره حتى جاء البريد
فلفت نظري عنوان في احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات
العام . مؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١)
فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك
كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونكل فى باريس « وكان
بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا
تماما وان كان قد طبع فى الاقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص
. . ولم يكن احد من اعضاء المجمع يعرفه الا ان احدهم قرا قصته
القصيدة اتفاقا فامجبتها فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء
النابيين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز استاذ القرية المتواضع
دونهم بمشمل النصر » .

فيا قوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب .
تلك لجائهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحبى كل ملكة مسالحة
للحياة وهم لا ياتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف
لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا
تحسن ان تجامل الا بان ترضى فردا لتقضى على امة كاملة بالمقم
والافتقار ان فى ذلك لموعظة .

(١) جريدة الديلى كرونكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ -

وخاصة القول اننا عرفنا رأى القراء فى عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يحبون بشوقى لغير سبب معقول يفتىء الى شعره فقد اسخطناهم ولا نسال الله ان يخفف سخطهم . واما الذين يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالموازرة وكان اقلهم موافقة من ارجا الحكم لنفسه حتى برى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الاولين يمثل كتاب ورد اليها غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وامثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل رأى الآخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الامثال :

شوقى تولاه عباس فاظهره واليوم يخيله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يخمل عصرا ولاقيسة وهم تخفتها صبيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟
انتقده ؟ قلت وماذا عساي ان انتقد ان لم انتقد الهراء والزيف
والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتني هدايك الله
فما كنت اظنها آية لاحد من العالمين وما حببتها الا زلة اسقطته
فيها « مغالبة الشجون لخاطره » او داهية خانه فيها امكانه الذي
ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني امكاني

وما دهاء الا العجز والفهاة والهرج . دهته اولا فاجبيل
وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها في اربعين يوما ثم زاد كثيرا من
اياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على مادته من
التلفيق والعقم والزغل الموه . فاما وقد علمت انها الآية التي بها
تؤمن شيعة وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التي يستنصر بها دعائه
فبايته فلندحض رسالته وفي معقله الحصين فلنكشف وهنه
ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل واى معقل
ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخسوى
من ذلك واضعف ، واضال في الضئولة واسخف ، اراحه الله من
شعره بما اراح من اقلام نقاده فانه لم الله لم يزعم لهم بديهة وان
كان يزعم بديهته في صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان

خاطره منه في وصف وشقاء ، ولقد فات اصحابنا سمسرة شوقي ان خلافتنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتقارب كلما اجاد شاعرهم في رايهم او خيب آمالهم واخلف ظنهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على ادائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نمزف كل العزوف ، كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان ابعد عن حالة الصحو والصواب وكالاعجمي كلما ابعث في فصاحته وبيانه استغلق على سامع الاعراب . وهذا هو الواقع في ما اخذناه وناخذ على شعر شوقي وهو بخاصة شأننا في الحكم على قصيدته هذه التي راينا بعض المفتونين يجلبها عن الانتقاد ويعجب من ان تعاب ، وهي لو يفقه من القصائد التي بصاب منها المذهب العتيق في مقاتله والشواهد التي يبحث عنها لابرار ماخذة . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رايه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقي واضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن اشهرها واقربها الى القلهون واجمعها لاغلاطهم عيوب اربعة وهي بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر . وهذه العيوب هي التي صيرتهم ابعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في اصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الرنجى من المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماکولى من نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآتفة اثر ظاهر في هذه القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد المزوياً او دقيقاً عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من نقائص الشعر ما لا يمنع ان يلمح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالطلى المزيفة فانها في القالب اجمل

من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة
غالية .

(١) التفكك

فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات
متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه
بالوحدة المعنوية الصحيحة إذ كانت الفصائد ذات الأوزان والقوافي
المتشابهة أكينر من أن تحصى فإذا اعتبرنا التشبيه في الأعارض
وأحرف القافية وحدة معنوية جاز أذن أن ننقل البيت من قصيدة
إلى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز .
ولتوفية البيان نقول أن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل
فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه
والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع
أو تغيرت النسبة اخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة
الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته
ولا يغنى عنه غيره في موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم
عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه
مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون
الهمج المتأبددين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره في تنسيق
عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا إلا حيث تنزل بهم عمالة
الوحشية إلى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية في الجهالة
ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها
فاعلم أنه الفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة
بل هو كأمشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء
الحلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف
وأجهزة ، وكلما استفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين
أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب

صالحة لأن تحل في أى مكان من البنية التى هى فيها . فإذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلافا شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه فى اشرف المخلوقات وأحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى اجناس الناس كما تتمشى فى انواع المخلوقات ومصادق ذلك ما نشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى فى هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص اللحي متشابهو الالوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك ان يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته . وتقرب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الأدب الفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمشرّب وتمائلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت ان تسم القصائد بعناوين واسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من ان الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات، ورايتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها فيقولون افخر بيت واغزل بيت واشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كان الابيات فى القصيدة حبات عقد تشتري كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا ادل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين ابيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السنيقة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صلب متصل الاشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة،

أو كأنما هي ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

وإذا كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه في قمته ، لا كالبناء المقسم الذي يثبتك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وهاه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أي وضع فهل يراها تعود إلى كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء إلا أحقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع أطرادها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك تأتي هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيد لها على ترتيب آخر يعتمد جد الاعتماد عن الترتيب الأول ليقراها القارئ المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على قضاء نضيمه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها إلا أنها كما نرجو لا تضيع عبثا - قال شوقي أصلحه الله :

- ١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في ماتم والسحائب
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
- ٣ لما نعت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين وروع الحرمان
- ٤ السكة الكبرى حيال رباها منكوسة الاعلام والقضبان
- ٥ لم تالها عند الشدائد خدعة في الله والمختار والسلطان
- ٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحظين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سسحجان

- ٨ جاز التراب وانت اكسرم راحل
 ماذا لقيت من الوجسود الفسلى
 ٩ ابكى صباك ولا اعاب من جنى هسنا عليه كرامة للجبانى
 ١٠ يتساءلون ابى السلال قضيت ام
 بالقلب ام هل مت بالسسرطان
 ١١ الله يشهد ان موتك بالحجسا
 والجسد والاقسام والعرفان
 ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم فى هذه الدنيا فانت البنى
 ١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيه آمال لنا وامانى
 ١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجدان
 ١٥ الناس جار فى الحياة لغاية ومفصل يجرى بغير عسان
 ١٦ والخلد فى الدنيا وليس بهن عليا المناصب لم تتج لجبان
 ١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما
 ماتوا على دين ولا ايمان
 ١٨ الجسد والشرف الرفيع صحيفة
 جملت لهما الاخلاق كالعنوان
 ١٩ واحب من طسول الحياة بذلة
 قصر يريك تقاصر الاقصران
 ٢٠ دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان
 ٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
 فالذكر للانسان عسر ثان
 ٢٢ للمرء فى الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
 ٢٣ فهي الفضاء لراغب متطلع وهي المصيف لؤثر السلوان
 ٢٤ الناس غاد فى الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهانى
 ٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة فى طيها شجن من الاشجان
 ٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سنان
 ٢٧ يظاهر الغدوات والروحات والخطرات والأسرار والاعلان

- ٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهتد وسنان
 ٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران
 ٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتي الفتيان
 ٣١ ما احمر من خجل ولا من ربة لكنما يبكي بدمع قان
 ٣٢ يرجون نعتك في السناء وفي السنن
 فكانت في نعتك القمران
 ٣٣ وكأنه نعت الحسين بكر بلا يختال بين بكى وبين حنان
 ٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
 ٣٥ ومشي جلال الموت وهو حقيقة
 وجلالك المصنوق يلتقيسان
 ٣٦ سقت لمنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالدمع الهتسون غنوان
 ٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
 اذ ينصتون لخطبة وبيان
 ٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر ام باى لسان
 ٣٩ فلو ان اوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الاوطان
 ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
 ٤١ او صيغ من غرر الفضائل والعلی
 كفن لبست احاسن الاكفان
 ٤٢ او كان للذكر الكريم بقية
 لم تات بعد رثيت في القرآن
 ٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والداء ملء معالم الجثمان
 ٤٤ يبغي ويظفي والطبيب مضال
 فنظ وساعات الرحيم سر دران

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
 دمع تملح كتمه وتملى
 ٤٦ تلى وتكتب والمشاغل جملة
 ويداك فى القسطاس ترتجفان
 ٤٧ فهششت لى حتى كانك عاندى
 وأنا الذى هسد السقام كيانى
 ٤٨ ورايت كيف تموت أساد الشرى
 وعرفت كيف مصارع الشجعان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائمها
 ما للمنسون بدكهن يدان
 ٥٠ وجعلت تسألنى الرثاء فهأكه من أدمى وسرائرى وجناني
 ٥١ لولا مغالبة الشجون لحاطرى لنظمت فيك يتيمة الأزمان
 ٥٢ وأنا الذى أرئى الشموس اذا هوت
 فتعسود سيرتها من الدوران
 ٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
 وتجل فوق النسيات مكانى
 ٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقننى
 فيك القريض وخائنى امكانى
 ٥٥ هون عليك فلا شيمات بهيت
 ان النيسة غاية الإنسان
 ٥٦ من للعسود بهيتة بلفتها
 عسزت على كسرى انوشروان
 ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
 فهل استرحت ام استراح الشسانى
 ٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها
 هسذا ترى مصر فنسم بامان

- ٥٩ اخلع على مصر شـبابك عاليا
والبس شـباب الحـور والولدان
٦٠ قلعل مصر من شبابك ترقدى
مجندا تتيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضياء تحرك الهرمان
٦٢ علمت شـبان المدائن والقـرى
كيف الحـياة تكون فى الشـبان
٦٣ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظمـامك حان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة
لأنها لم تأبى أن تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان آخرى بها أن
تسمى أربعة وستين بيتا منظومة فى كل شيء أو فى لا شيء . فاعتبرها
أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة
وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها
ربحت وعادت أحسن نسقا وأقرب نظما - قال شوقى أيضا :

- ١ المشرقان عليك ينتحبـان
قاصصيهما فى ماتم والسـدان
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى
ولرب حى ميت الوجـدان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالدكر للانسـان عمر ثـان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

- ٢٧ يا طاهر القدوات والروحات والخط
 سرات والاسرار والامسلان
 ٩ ابكى صبابك ولا اعاتب من جنى
 هسنا عليك كرامة للجسانى
 ١٩ واحب من طول الحياة بذلة
 قصر يريك تقصاصر الاقصران
 ٥٦ من للحسود بميتة بلغتها
 عززت على كسبرى اتوشسروان
 ٣٦ شقت لنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالسمع الهتون غوان
 ٥٥ هون عليك فلا شمات بميت
 ان النية غايبة الانسنان
 ٢٠ دقات قلب المرء قائلة له
 ان الحياة دقائق وثوان
 ١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
 هل فيه آمال لنا وامانى
 ٦٠ فلفل مصرى من شبابك ترتدى
 مجندا تتيه به على البلدان
 ٤٢ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والناء ملء مصاليم الجثمان
 ٤٤ يبنى ويطنى والطبيب مضلل
 قنط وساعات الرجيل دوان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائما
 ما للمنسون بدكهن يمدان
 ٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
 بعض المضاء تحرك الهرمان
 ٤٦ تملى وتكتب والمشاعل جمة
 ويداك فى القسطاس ترتجفان

- ٤٥ ونواظر المواد عنك أمالها
دمع تصاليج كتمه وتعالى
- ٤٧ فهشيت لي حتى كانك عائدي
وانا الذي هد السقام كيـسـاني
٥٠ وجعلت تسالني الرثاء فهـاكـه
من آدمي وسرايري وجنـسـاني
- ٤٨ ورايت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
٥٤ ماذا دعاني يوم بنت فعقسنى
فيك القريض وخاننى امسكاني
- ٥٢ وانا الذي ارثى الشموس اذا هوت
فتمود سسـيرتها من السـدوران
٥٣ قد كنت تهتف في الورى بقصائدي
وتجبل فوق النيرات مكاني
- ٥١ لولا مغالبـة الشجون لخاطري
لنظمت فيك يتيمة الازمان
* * *
- ٥٨ يا صـب مصر ويا شهيد غرامها
هنا ترى مصر فنسم ياملن
- ٦٣ مصر الاسيفة ريفها وصميدها
قبر ابرر على عظامك حان
- ٢٤ في لمة الله الكريم وبسره
ما ضم من عرف ومن احسان
- ٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلـى
كفن لبست احاسن الاكفـان
- ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفـان

- ٤٢ و لو ان اوطانا تصور هيكلا
دفنوك بين جوانح الاوطان
- ٤٢ او كان للذكر الحكيم بقية
لم تات بعد رثيت في القرآن
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد
في الله من خلد ومن رضوان
- ٦ ياليت مكة والمدينة فازتا
في الحفطين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الاواخر يومذاك ويسمعوا
ما قاب عن قس وعن سسحجان
- ٢ لا نعت الى الحجاز مشى الاسى
في الزائرين وروع الصرمان
- ٤ السكة الكبرى خيال رباهما
منكوسة الاعلام والقضبان
- * * *
- ٨ جار التراب وانت اكرم راحل
ماذا لقيت من الوجسود الغلى
- ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشانى
- ١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت ام
بالقلب ام هسل مت بالسرطان
- ١١ الله يشهد ان موتك بالحجى
والجسد والاقدام والعرفان
- ١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فانت البانى

- ٢٨ هل قام قبلك في السنان فاتحاً
 فاز بفجر مهندس وسنان
 ٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنده
 ان العلوم دعائم العمران
 ٢٢ علمت شبان الملائن والقري
 كيف الحياة تكون في الشبان
 ١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين
 عليا المناصب لم تتج لجبان
 ٢٣ فهي الفضلاء لراغب متطلع
 وهي المضيق لؤثر السلوان
 ١٧ ولو ان رسل الله قد جبنوا
 لما ماتوا على دين ولا ايمان
 ٣٠ لفسوك في علم البلاد منكسا
 جزع الهلال على فتي الفتيان
 ٢١ ما احمر من خجل ولا من ربة
 لكنهما يبكي بدموع فان
 ٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
 وجلالك المصدق يلتقيان
 ٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
 فكانما في نعشك القمران
 ٣٣ وكأنه نعش الحسين بكربلا
 يختال بين بكى وبين حنان
 ٣٧ والخلق حولك خاشعون كهمهم
 اذ ينصتون لخطبة ويبين
 ٢٨ يتسائلون باى قلب ترتقى
 بعد المنابر ام باى لسان
 ٥٩ اخلع على مصر شبيبك حاليا
 والبس شبيب الحسود والولدان

- ٥ لم تألها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان
- ١٥ الناس جاد في الحياة لقاية
ومفضل يجري بغير عنسان
- ٢٥ ومنعم لم ياق إلا لسنة
في طيها شجن من الاشجان
- ٢٢ للمرء في العنينا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسـران
- ٢٤ والناس غاد في الشسقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني
- ٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سسـيان
- فانظر ايها الفاريد الى هذه المراتة هل ترى بينها وبين سابقتها
من تفاوت ؟ على اننا قد تناولنا الايات عفا كما بدرت لنا ولم نتحر
الاقصاء في الترتيب . ولو اننا غيرنا بعض الضمائر التي تعلق الاسم
على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التي تصل
الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكسب يجتمع بيت من
القصيدة على بيت . وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال
القارئ نفسه : هل قرا في الشعر اشد تفككا منها ؟ فعلى حسب
الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبت
من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل
الوهاد والنجاد او تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة
بخلع الضرس وبخلع النفس فتاتي كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل
واليبس ؟
- وقبل ان نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية
ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقسية
المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد ان يشع
الخطاير في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما اسلفنا
بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا في هذه
القصيدة .

(٢) الاحالة

اما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مفزاه وشواهدهما كيرة في هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لأنها لا تقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقي . اللهم الا اذا ظن انها اعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف او ينكس لما كان في المعنى طائل اذ ما غناه قول القائل في رثاء العظماء ان الجدران أو العمدة مشلا نكست رؤسها لأجله ؟

ومنه قوله :

ان كان للأخلاق ركن قائم (في هذه الدنيا) فانت البقي

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والأداء اجمعه على طريقتيه ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئاً وكما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضمير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولاى قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبهران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح ان يقال في انسان

معلوم أو صبح أن يقال في كل إنسان : في السياسي والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهديان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ ايفهم انه وحده هو الباني لكل وكن للاخلاق في هذه الدنيا ؟ اذن فماذا يقال عن النبي أن قيل هذا عن الزعيم السياسي ؟

وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول في قائد الحرب وفي جوابة الافاق وفي خطيب المحافل وفي التاجر السرى والوزير المحنك والمربي المرشد والمخترع الحاذق في كل انسان بل في الناس جميعا بل في مخلوقات الله وكائناته طرا من حى وثابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمداول سواء أرثيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بذهبه آلاف الملايين منذ الالف السنين .

ولا جرم فان كونفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل انه موقظ كل نفس بمصر في عصره لما كان هذا حقا اذ كم في مصر من رجل ايقظه ما ايقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من اناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر في كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتب بهلما وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الامم في جميع العصور فالامر شر من اللغو واقبح من السفه . هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضة السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الاخلاقى فزعم أن ليس للاخلاق ركن قام في هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد في اواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وخيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

أذن يكون بكم المعجاوات خيرا من شعر الأدميين كما قلنا في
فصل مضى .

ومن الإحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل في قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأمانى
لاغتفرت له هذه الثروة على قلة محصلها وتفاهة مفزاها . أما الذي
يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل في قلبك آمال وأمانى إلا في
معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يمشي : يا هذا
الذي يمشي هل أنت حي ؟

ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي
فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله
كبار النفوس وبميدى الهمم ومنها :

فلو أن رسل الله قد جئوا لما

ماتوا على دين ولا إيمان

الصواب في اظهار فضل الشجاعة أن يقال أنها لازمة في اصقار
المطالب واقترب الفايات كما يقال في اظهار فضل المال أن الإنسان
لا يقدر على أن يشتري ابرة بغيره ولا يقال في الدلالة على شدة
لزومه وبيان الحاجة اليه أنه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا أن أحقر الناس خليف أن لا يكسب قوته القفاز
بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها
واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففي وسع الناس
قاطبة أن يقتنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . أما
أن قيل أن الشاعر يعني أن الرسل الذين تدمهم قوة الله وتزيدهم

روح الله لابد ان يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من
فارغ الكلام بما هو افرغ منه وهل اذا سمعت ايها القارئ رجلا
يخبرك ان المصارع المؤيد بالمنة ومثانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان
قويا اكنث تظنه يخبرك بشيء يستحق ان ينظم في بيت شعر ؟ فهذا
الذي يخبرنا به شوقي ان صبح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :
فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

والذى يقوله الناس - وشوقي منهم اذا شاء - ان قضاء الدنيا
يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تازم بالطامع المتدفع ،
لبعد آماذ همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى
نفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !!

فاما القول بان المطامع تفسح الدنيا والبلوان يخرجها فمرأى
لا يخطر الا على فكر كفكر شوقي المقلوب .
ومن هذه الاحالات هذه الفهامة :

فاصبر على نعى الحياة وبؤسها

نعى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف اما الصبر على نعمائها فعابدا
هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة
في ان يصبر الانسان على النعمة وان تيطره المحنة . هكذا يقول
شوقي وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هي اشبه بالمحنة من هذا
الشعر الذى انعم الله به عليه . والله في خلقه شئون .
ويقول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى

فكانمسا فى نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الشانى فى
ذلك النعش !!

ولا يقال ان صاحبنا اراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى الثور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كانما في نعثك القمر » أو « كانما في نعثك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمري كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟ ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقضاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالمدسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرئ وامرئ ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف . ويقول عافاه الله :

وانا الذى أرثى الشموس اذا هوت

فتعسود سسيرتها من الدوران

اى والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر . ويقول :

يا صلب مصر ويا شهيد غرامها

هسنا ترى مصر فتم بأمان

ونقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء ان نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف ان يقال لرجل مات فى وطنه : احببت بلدك فتم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن فى غيره . ومن مبالغات التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله اراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في
هذا البيت ونحن ننمى على هذه المبالغة دائما انها لا تدل على شيء
فهب انه قال :

فلو ان بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان
أو قال :

فلو ان بالشطين من عزماته

بعض المضاء تحرك الشيطان

الى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت
في رثاء مصطفى أو رثاء باستور أو في رثاء ابن زريق أو مشهور
كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير
موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟
ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها

قبر أبر على عظامك حان

مصر ايها القارىء ... ولا تخطيء فتحسبها القاهرة المعزية فاتها
مصر بريفها وصعيدها - مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلهذا
شاعرها يرثى رجلا احيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولاى ضرورة
وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتزاننا بهذه الابيات ، لا لانها كل ما في القصيدة من شواهد
الاحالة واعوجاج الطبع ، بل لانها ذات طعم وان كان رديئا ممجوجا
وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة ان القصيدة
بجملتها بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانسأ
اكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

(٢) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة وأعر أبيات هذه المرتاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فأرفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالدكر للأنسان عمر نان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفضول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كهمهم
اذ ينصـون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الانبارى فوق تشويهه وذاك حين
يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة :

كانك فقم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

وتقول شوهه لان الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به
واتما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة

وقوله .

او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان

ماخوذ من بيت ابن النيه في قصيدته التي لم تبق صحيفة لم
تستشهد بمطلعها :

النساس للموت كخييل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت في التراب ولو انصفوا ما كنت الا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتداله وسخفه ان تنظمه «عالم»
الافراح في اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من
القائلات « احطك في عيني يا سيدي واتكحل عليك » وانه ليقول
كما قلن :

ولو ان لي علم ما في غد خباتك في مقتلتي من حذر
وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت في القرآن
منظور فيه الى بيت المعري :

ولو تقسدم في عصر مضى نزلت
في وصفه معجزات الاي والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والاعلا
كفن ليست احسن الاكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ربا حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما اضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاكفان تصاغ
وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصور هيكلا
دفنوك بين جوانح الاوطان

يريد جسدا . كانه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسدا لم
يضمن القصيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعت الى الحجاز مشى الاسى
اليست هي شطرة الشريف في احدى همزياته :
لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول
الشريف ايضا « ان المنية غاية الابداد » وكان القافية صدته عن
انتهاج الشطرة كلها فماد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او نأى فان المنيا غاية القرب او قصارى البعاد

فاتم الفتيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل
على حدة .

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعمري بالأعراض دون الجواهر
وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة
الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والمبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها في الصدور عن طبع اعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن اللفظ الى هذا الضرب من المبث غير على من لا يدركه بالبداهة كما يمسر على الاطفال ادراك رزاة الرجال انظر ايها القارئ الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت الفصيد في راي عشاق شوقي فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هي البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة ... وهنا يبدو للنظر في قصر المسافة التى يذهبون اليها في اعجابهم وان بلاغتهم الزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المالية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

ابله العوارض يقدر الاحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم في الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟ ولقد قلنا في نقدنا لثرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ او لغة لانها حقائق الانسانية باسرها قديمها وحديثها مريبها واعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . وبقيتنا ان احدهم لو سمع

فأصحا يعظه في موقف جد - وأى موقف جسد أجد من رثاء
 الثابفين آآ - فيناديه يا أخى من وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض
 الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك في
 عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ،
 وما ذاك الا لحسبانه ان الهزل جائز في الشعر فكاهة وحكمة ، ولو
 علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه
 ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان

لغوك في علم البيلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
 ما احمر من خجل ولا من ريبة لسكنما يبكي بدمع قان

والعلم جوهر وعرض فاما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد
 الامة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية .
 واما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع
 الاعلام لاجله . فشوقي يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا
 يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى
 بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كي يكون لونها دمعاً ودمعها دماً
 منزوفاً . وليست هذه هفوة او فلتة بدرت منه هنا بل هي دأبه
 كلما وصف علماً ، فقد قال في وصف الهلال الاحمر :

كان ما احمر منه حول غرته	دم البراءة زكى شيب عثمانا
كان ما ابيض في اثناء حمرة	نور الشهيد الذي قدمنا ظمنا
كانه شفق تسمو العيون له	قد قلد الافق يا قوتا ومرجانا
كانه من دم العشاق مختضب	يشير حيث بدا وجدا واشجانا
كانه من جمال رائع وهدي	خود يوسف لماعف ولهاننا
كانه وردة حمراء زاهية	في اظلم قد فتحت في كفر صوانا

فهو يمثل راية الامة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالساقوت

والمرجان في لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشبهة
او دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من
عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين
ولم يجعل للراية قررة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس
اذ هو قد وصف هلالا ابيض في اثناء حمرة والهلال الاحمر على
عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه ... ومع هذا فاني
لا قسم ان صاحبنا رص هذه (الكائنات) في آياته الستة ويخيل اليه
انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول
كان وكان لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب ان يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة
على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن
احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى ان يظن بها الناس
الظنون وهي بريئة عفة !! اذما الذي يخطر على باله الخجل والريبة
في هذا المقام وهو يرثى الرجل الذي يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت الباقي .

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت اين تنتهي بصاحبها !! وليت شعر
شوقي اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول !!
اكان لا يرى للنعش بها اي معنى لانها لا تبكي بدمع احمر !! .

تلك آية شوقي ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة .
كومة الرمل كما قلنا في اول المقال . ولقد اتم فيها امتساخ الطبايع
بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الاغلاط ، وسعلا مرقعا
من النشور والاختباط . وما كان يسمعه ان يخرج نفسه خلقا
آخر فيأني بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في
اغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسمعه ان يعلم ان السكة
الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعتت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين ودوع الحرمان السكة الكبرى حيال رباعها منكوسة الاعلام والقضبان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارىء
للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال
وبى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة

وكان في مقدوره ان يعلم ان الحسين لم يشيع في موكب حاشد
كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

وكانه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكى وبين حنان
وقد رايناه يغير على قصائد الشريف اعتراه لم يفقه رائيته التى
يقول منها في مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبه الا بوطيء من الجرد المحاضير
كان بيض المواضى وهى تنهب نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد افام ثلثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يشتظهر
خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى اتخن بالجراح وانه - لا حيا الله
قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة واكثر من أربعين ضربة ثم
دبس بالخيول ورض جسده واحتز راسه وطوفه ابن زياد الكوفة .
ثم ارسله الى يزيد في خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وانى لمن
يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المواكب !!
ولا تقول يختال بين البكاء والحنان فما من احد ينسب الاختيال
الى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع
قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فان زعم انه يقصد
موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة
الحسين فالخطا اعظم واقبح لاننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رأيناهم يحملون نعشا وإنما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لأنهم
أزكن من شوقى وأدرى بما ينبغى أن يذكر به يوم الحسين اذ كانوا
يحتلفون بمصره فى ميدان حرب لا يمدقنه فى الثرى .

كان يسعه أن لا يقول ذلك كما كان يسعه أن يسكت ولكنه ألهم
أن يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا
يتداركه . وأن يجتهد فى ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو فى الحقيقة
يكافأ المكافأة التى يستحقها فإنه بهذه العاهات يفتق شعره بين
الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع
منه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال
منه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

ولا ندع هذه القصيدة التى ملأها شوقى بما يسميه حكمة
وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبى ومضاربة المعرى قبل أن
تكشف عن فشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين
يؤمل صلاحهم واقتناعهم وأن تروى تلك البديهييات واشتباه
البديهييات التى يتصنع شوقى بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من
هينقياته ويربح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة فى الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من أصعب
الشعر مراما وأبعده مرتقى لا أساس قيادها لغير طائفة من الناس
توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجربى بها السننهم آيات
تنفج ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة
من عفو خاطره ومعين وجداته فكانما هى فصل الخطاب ومفرق
النسببات تستوعب فى أحرف معدودات ما لا تزيد الأسفار الإضافية
الا شرحا وامتدادا وتسممها فتشع فى ذهنك ضياءها وترتك كبف
يتقابل العمق والبساطة ويألف القدم والجدة : قدم الحقيقة كائت
ما تحلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التى
تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ
الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبي اللذين
يمدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

**تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولن يغالط في الحائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع**

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه
والغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء
هم الذين يفتنون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه
من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد قلن يجد انسانا غير هؤلاء
تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا
نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكان
قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن
العبد :

**لعمري ان الموت ما اخطا الفتى لكالطول (١) المرخى وثنياه باليد
وهذا اجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتهة بالاجل
وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبها كما قال
البحتري**

**متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه
وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز
تغرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور
الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فاعمله لا يظلم
او كقول ابي فراس**

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فاذا قنمت فكل شيء كافى

(١) الطول : حيل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بضات الطير أكثرها فراخا وإم الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا في كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها بوضوح المألوفات كما صنع الأفوه الأودى بهذا البيت القل

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهسأ لهم سادوا

فقد حفيت الأقلام بحثا وتنقيبا في علوم الاجتماع وكلت القسرايح تدبرا وانصاما في شئون الأمم وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والديساتير فما خرجت كلها بزيادة أو جزوا لا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التي اهتدى إليها هذا البدوى الناشئ في عصور الجهالة وانك لا تزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والإصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة وهي كما ترى غير قاصرة على إيراد الحقيقة المسلم بها وانما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتدلة أو مغشوشة ممتعلة . اشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الفزير ،

وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى
والهجير ، واحقق ممر يحمر البئر على شاطئ النهر من يروح
ويغدو ينظم من اشباه البديهيّات تلك النصائح الفاشية التي حفلت
بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة
في البكور واحترم الاستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التساوى
السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم - ينظمها ليشتهر
بالحكمة وليصيح من فوقها .

لي دولة الشعر دون العصر وثلة

مفاخرى حكمى فيها وامثالى II

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والامثال المخور ؟ انه
هو شوقي ، ثم هل يدري ما حكمه وامثاله التي استتبت له بها
دولة الشعر ؟ هذه هي :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس اذا الاعلام خانت بتخال
والعلم في فضله او في مفاخره ركن المالك صخر الدولة الخالي
يقل للعلم عند العارفين به ماتقبر النفس من حبواجلال

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونصرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الاول
نحو « العلم نور ، من عاشر العلماء وقر ، تعلم العلم لحفظ الدرس .
حلى النساء الذهب وحلى الرجال الادب » وليسأل نفسه ماذا زاد
عليها ملك الشعر المتفرد بدولته واى ميسم يبدو عليها من مياسم
نفسه وماذا من وحى الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية
واصلتها ؟ اليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟

ومن اركان ملكه اعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات
فاكثر فليتلق الوحي اناس حجبوا عن صفاء الشاعرية
وليسعدوا :

المحسنون هم اللبّا ب وسافر الناس النفاية
ان القصاص اذا رمى ذلك القواصة من ثير
والمال لا تجنى ثمار رؤسه حتى يصيب من الرأس مدبرا
الجسد غاية كل لاه لاعب عند المنية يجزع المفرح

سر في الهواء ولد بناصية السهى

الموت لا يخفى عليه سسبيل

فلم ار غير حكم الله حكما ولم ارد دون باب الله بابا
وان البر ابقى في حياة وابقى بعد صاحبه وثابا
ومن يعدل يحب الله شسيئا كحب المال ضل هوى وخبا
وما الرزق محتجب حرفة اذ العظ لم يهجر المحترف
ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرئ لاييسه تابع تال
ومن العقول جداول وجمامد ومن النفوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقمها

ليس الشجاع الراى مثل جبانه

ولعمري لقد كانوا يقصون علينا ونحن اطفال حكاية تاجر الزجاج
مع الحمل وهي الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان
يضحكنا ان نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمل
واحدة فى اثر واحدة فيفهمه متشدا انه : « ان آل لك حد الراكب
مثل الماشى اول له بتفشر ، وان آل لك حد الفنى مثل الفقير اول
له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى اجرة « شيلة » حتى
راى شوقى ان يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان
اول له بتفشر » فآمنا بخرق ذلك الحمل الذى لم يقدر ما قبضه
من الاجرة الغالية !!

وهل علم احد ان المسافر اذا آب فقد آب قبل ان يقول
شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما اذا رزق السلامة والاياما
ام علموا الحق حتى اخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا اياهم :
ليس الحق ان العيش فان وان الحي غايته الممات
ليس كذلك ام ماذا بالله ؟؟

ام حكم احد الاحلام الا حين علموا منه ان :
الحق ابلج كالصباح لناظر لو ان قوما حكموا الاحلاما

ومن امثلة حكمته المفشوشة المتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة في شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير
استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها - اى
انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبيلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى
اتلفها ولم تفتت هي حتى تفتت . مهابة واجلالا ... وانه لما
اكلها اكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الاسد لا يؤكل الا عضوا
عضوا ..

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والارض والسماء،
المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والثناء ، المنعم عليهم بالذكر
والايما .. تصفيق متواصل .. لابل ضحك تتجاوب به الاصداغ،
على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعير
وامير الشعراء .

فيا هذا . ان جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لانها
في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة اجساد كثيرة . وهي في
الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من اكملها الى ادناها . ولو

جاء أن يعظم أحد بأن يقال أن الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق
بإبطال الحروب إذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على
أقرانهم . ولكننا مع هذا نرى المتنبي يقول في أبي شجاع .

من لا تشاسبه الأحياء في شيم

أعنى تشاسبه الأموات في الرمم

وهو من تعلم محضاً الحروب وابن الكريمة وحلس الخيل كانوا
يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحقى
فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى أنه لا
معنى لأن يقال أن البلى تهيب أن يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه لأن
تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل
إلا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالفار أيضاً لا يؤكل
إلا وهو واشلاء والدجاجة لا تؤكل إلا وهي اشلاء بل حتى الأرذ لا
يؤكل إلا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدد لقمة واحدة فيما
نظن ويظن جميع الأكليين . وصاحبنا برئى شاعراً فيخلط هذا
الخلط فعافاه الله ؟ى نوع من أنواع العظمة يفقهه أن كان لا يفقه
العظمة التي يلتبسها منذ ثلاث قرن من الزمان ؟؟ وابن من تقدير
شكسبير من يرثيه رثاء إذا صح فيه فإنه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضاً ينزل بالحكمة
إليه فيلحقها بوظيفة كتاب الإعلانات ويكلف الشعر أن يقول أ

احذر التخمة أن كنت فهم	أن عزرائيل في خلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل	من توقاه اتقى نصف الصال
اتخذ سكناً في طلق الجواء	بين شمس ونبسات وهواء
خيمة في البيد خير من قصور	تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس
من النشالين » و « ان اردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف
القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستتمد وحى الشعر ويرتجل
البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا ابياتا يجوز ان يكون معناها
مطروقا شائعا ويجوز ان يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها
الشاعر المطبوع فينتقث فيها حياته وكيف تمن للنظام المقلد كما هي
وتختارها من معان ورد مثلها في شعر المنبى الذى يقتفى شوقي
اثره ويطمع ان يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة سساد الناس كلهم

الجود يفقر والاقصام قتال

الف هنا الهواء اوقع في الانف

فس ان الحمام مر المذاق

من اطاق التماس شيء غلابا

واغتصبابا لم يلتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت ايلام

لا يعجبني مفسىما حسن بزه

وهل تروق دفينسا جودة الكفن

فهذه ابيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع
الدائمة وآية الفطنة الباقية ، وهي قد كان يمكن ان تقع لشوقي
من ذخيرة الاحاديث المشاعة فتسمعها منه كمادته في نقل هذه
الاحاديث منظومة فاذا هي مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة .
الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان .
لا يرين الدليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الامثال العامة فاذا شئت
ان تزن الحكمتين بميزان الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس المهمة والطبيعة المشرقة
والسريرة العميقة وانما المصدر الذي تيجست منه والشخصية
التي طبعتها بصورتها والقلب الذي خرجت من لدنه والحجة التي
صيرتها مقنعة شاقية هي بفتنا من نجوى الالهام وهي التي يرتوى
منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبي « لولا المشقة ساد
الناس كلهم » ثم يتم المعنى لان هذه الشطرة التي لا تزيد البيت
صحة تزيده حياة وتنبتنا وحدها بان في البيت حقيقة اقرب الينا
وحجة الصق بنا وثمره اجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة
التي تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتامل تعبيره عن الحياة
بانها « الف هذا الهواء » فهل ترى اصدق من هذا التعبير !! اليس
المتنبي قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التي ليس كيانها
الا عادة تأنفها زمنا ثم تبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال في بقية الايات .

وصفوة القول ان الحكمة المبتدلة ايسر ما يتعاطاه النظامون
لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية
مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لأنهم لا يملكون جوهرها
ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته
وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض اقوالهم فخالوها من
قبيل الحكمة العالية لما يبههم من رنين صياغتها وبريق طلاها
فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان ارقى ما يرتقون
اليه ان ياتوا بكلمة مقبولة في شئون المعيشة وفرق بعيد وبون
شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فاما الاولى فبنت
المران والمكابدة تقرا آلافا من امثالها في كتب اللياقة ونصائح « اياك
وحذار عليك » واما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمره
التفوق في شمائلها المقدسة وضمائلها السرمدية . كتابها صفحات
الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والاديان
وتنبثق روح الرشاد والبيان . الاولى لون من الوان البيئة المكتسبة
والثانية قيس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة ان لا شك في غلبة الصنعة عليه
كالحريرى على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يعلب صيدا غير ان الشباك مختلفات
ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن انه سقط على كثر وطار
به كانه لا يصدق انه له او كانه يخشى ان ينزعه لفرحته به وهو
وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان تولت مضوا في اثرها قدما

ثم كرر ايضا فى قوله

وليس بعاصر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك على الاخلاق كان بناؤه من نحت اولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد اخرى وكل هذا الفرع بمعنى
بعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك
ما يستحق ان تصفى اليه من يخبرك بأن الاخلاق الصالحة ملاك
صلاح الاجتماع وقوام الامم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون
عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر
البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية او حقائق
التمرينات الاولى .

ورحم الله القنعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس
فى بائته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشى ولها ذنب
لا تغضب يوما ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى أن يقول

النساقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثيرا في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها انها سخيصة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحث أن يستأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا أن كان للبيت مدلول ، لأن البيت في الحقيقة لا مدلول له . فلو أنك حدثت كلمة الأخلاق وجعلت مكانها أصغارا لما نقص من معناه شيء . لأن هذه الكلمة لا تؤدي معنى محدودا في الدهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها تقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراعاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحيانا من كلام الأفرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطباع البارزة والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقي ؟؟ أن من الأمم ذوات الحيوية الغالبة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والمزقة فضلا وهي مع ذلك من تاصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواصت القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الأمم . وإن منها لما تحمد سجايه ثم لا تلغيه من القوة على نضيب وافر فليقل لنا شوقي ما غناه بيته أن كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو إسرائيل .

ولقد أضحكنا مرة أحد الثائرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا أن البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وإن في ذبوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردي .

لا تقل أصلى وفصلى أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصل

فإن كان لهذا الشعر قيمته فنهينا لنا !! اننا أمة من ثلاثة مشر مليون حكيم بل نهينا للانسانية فإن الشمس لا تطلع الا على الحكماء من اينائها .

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم
بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني
والضريح الزينبي ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد
فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما أن دفنوا
بالأمس الأنيمة . .

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقي
رثاء للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهي منشور قوله :

حلفت بالمسطرة	والروضنة المعطرة
ومجلس الزهراء في الـ	حظائر المنورة
مراقده السلالة الطـ	ييبة المطهرة
ما أنزلوا إلى الثرى	بالأمس الأنيمة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قسم لأقسمت له بحزن
قبلة ومقام ، وبكل نبي وإمام ، أنه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء لا
أن كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرائنا
شوقي في مرآيته أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة
ينمط يلتبس عليك فيه الجذ بالمزح ، ويقترن المبتك بالمدح —
أفرايت أحدا قط يقسم لك على صدقه في تعداد منافع مرئيه
كانه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غير شوقى ؟؟ واذا اطرده هذا فى جميع شعره قلم لا نحسن الظن
ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابہ ونتخذ له اسما فى اصول
البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا أو اسما آخر
مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من
مرائيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه
سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده
فى قصائده جميعا وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم
انها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها اصول يرعاها وأسوم
يعيها ولا ينساها . والا فلو كان حذرهم من التكذيب واتقاؤهم تهمة
المدحاجة فلتة سبقت بها فريحتهم فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه
الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرد
وكل دمع كلب ولوعسة مزورة

الا ان الامر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم
فاشعرنا الريب واتهم نفسه فى ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكلب
واللوعسة المزورة فارانا حكمة ذلك القسم وانه لم يسدر منه جهلا
بغنون الرثاء وانما تفننا واختراما لم يسبق اليه ، ونرجو أن لا يبارى
فيه . . . فاما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا
الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير اسمائها .
فلا بد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير
قواعده وضبط اصوله ورسم نماذجه .

عجيب والله امر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ اشبه بالتعمس
ولا توقرا أقرب الى المجانة من هذائه فى رثائه . وما التبس الهزل
بالاجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان افتناه عن الحلف
ومبرات الاميرة أشهر من ان يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر إذا لم يصدقها الناس
بالإيمان أو البراهين في قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا وسأله :
ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة
مزورة ؟؟ أضروري هذا ليقول بمدى أن الدموع الكاذبة لا تفنى
منها وأنه .

لا ينفذ الميت سوى صالحة مدخرة
أقول ذلك لأن الدموع إذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت
الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكي كالبكاء في هذا
المعنى فلم هذا السخف الذي يفيض من البكية والبائسين وليس له
من جسدي ؟؟

ونحن ما كنا لتوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا أننا نريد
أن يلمس ضعف تمييز شوقي عن التفرقة بين حالات النفوس
ضعفا لا تتفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا بيتين
منها يرددان في معرض الاستحسان فأحببنا أن نسمح الرغو عن
محضهما أن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت
الأول وهو .

فأطعم من يولسد يمت الهد جسر المقبرة .
أصحبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من
السابقين إليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا النيسا إلى قبرها فأنما النيسا لهم معبر
وفصله الممرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول وثان ، وفقد المرء أن يعبر الجسر
وهو أوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة النيسة واعلم أنما الشيب للمنية جسر
فألذي صنعه شوقي هو أنه سرقه وشوّهه كعادته لأنه جعل
المرء يخرج من الهد إلى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالا لا

والصحيح ان المهد اول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية
بقيته .

والبيت الثانى او هو بيت القصيد فى رايهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا ان يمدح كل بيت فى القصيدة
خلا هذا البيت ، وهذا من الفرائب فى تضاد الاذواق وانتكاسها .
فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب
الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن
صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان
اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تائف الانسان من الحياة حتى اذا
ادركه الموت خلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كأنها « السكرة » !!
ولكننا نخال صاحبنا كمن يعنى على يديه او ينام على بطنه فىرى
العالم معكوسا ...

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه
القصيدة :

وكل نفس فى غمد ميتة فمششرة

فالنفوس لا تموت فى قد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى
امس واول من امس وقبل ذلك بالآلاف السنين وهى تموت اليوم
بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى ان يقول : ان كل نفس تموت
منشرة غدا - فخانه الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما
جاء بطائل .

واما سائر ابيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها
وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات ننقل شعر شوقى فلا
نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصاء ، والشعر اذا تساوى
فيه اللقد والافضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ما هذا يا أبا عمرو؟

مصطفى افندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه برغبة
رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيسانا وكثيرا ما يخطئون
السداد بتريهم وطول اناتهم . وطالما نفقه التطوح وأبلغه كل أربه
أوجله اذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع
تكذيبه فتجوز دعواد وينق الحافه عند من ليس يكرتهم أن يخدموا
به . بيد أن الاعتساف اذا كان رائده الخرق فى الراى وشيك أن يوقع
صاحبه فى الزلل احدى المرافضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفداه
بكل ما فى دماغه من هوس وما فى لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق
الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى فحق علينا أن نفهمه خطر
مركبه وان قدميه أسلس مقادا من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح
الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد
شوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه
الرافعى لأنه لا لبالى اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من
بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة ١١ ولكنه
مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من منسده
مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والبخيرة فلم يدع
فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى اثينا بها الا انتزعه
وبدده وفاته ان القديفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزمين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبيه
إلى صنيعة ، وما له عاقاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوة علينا
ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على
غير سياجنا ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الأعذار ولكنه أذن لنفسه
ينغاية الإفراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط .
فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكتى نفسك أو يا أبا
عمرو كما تقول للجنة الأغانى فى خطابك فإن صاحب المساكين حري
أن لا يقتصب بالسيف كما صنعت وفى رائعة النهار .

قلنا فى نقد نشيد شوقى أن النشيد القومى يجب « أن لا يكون
وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » .
فرجع صاحبنا أبو عمرو إلى نشيده فحور منه ما استطاع
بضمير المتكلم فقال :

إلى العلاء فى كل جيل وزمن فلن يموت مجسدا كالأول
وقد كان هذا البيت فى الطبعة الأولى :

إلى العلاء فى كل عصر وزمن فلن يموت مجسدا مصر لا ولن
ولما أن طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض من يديه
ترايه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى
لقسوله :

على الأخلاق خطو الملك وابنوا الخ .. الخ .

ويسأله : « ومن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه
أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سألنا من قبل : « فمن الذى
يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة لا » وكما أخذنا عليه
« أنه لحنوطا مطية الفلسفة والمواعظ » .

واتكرونا من نشيد شوقى أنه « قد حسب أننا سنظل طوال
الدهر كلابنا فى يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى جميع

المصور أن يتهيا مكاننا وأن لا نبرح نشرق في التمهيد وناخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشيد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيهقي فقال : « وإذا قيل اليوم لبني مصر هيا مهدوا للملك ومكانكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعده ألف سنة وما شاء الله وإلى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقي عن الشمس : « ألم تك تاج أو لكم مليا ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج القرامنة وإنما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيهقي أيضا « أن زعم شوقي أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وإنما كانوا ينتسبون إليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فله ما أعلم البيهقيات بالتاريخ إذا لقنته ||

وعبنا على شوقي تخفيف الهمرات وأنه صير « سئلت » سيلت و « تهيا » تهيا و « شينا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه إلا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة ||

ورويتا أن بعض اللحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول مهدهم عرا و « فخرا » النخ الخ .

لأن التنوين لا بد أن يسقط في الانشاد فيخلقه المد وترجيح الصوت . قالوا « وإذا انتهى النشد مثلا إلى كلمة (فخرا) ومد

بها صوته ورجه فأي رائحة تفوح منها ؟ ثم قلنا : « ولسنا نحن
معن يبالى بهذا النوع من النقص ولكننا نعلم المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين انهم : « تنادوا بقوله فخرا
وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انها مما لا يدوقه احد
الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا
السخرى فلندعه .

اتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه !!

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذي صعب الزمانا ومن حسدثاته اخذ الامانا
ونحن بنو السنا الصالي نعمانا اواقل علمسوا الامم الرقيسا
لان الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز
له النفوس » .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف
غفل شوقي من ان يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فاسأله بالله ثم اسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!
ونقلنا عن بعض اعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا

فليس وراءها للعسر ركن

ليس لكم بوادي النيل عدن

... الخ الخ

قال : « ان البيت الثاني منبتر وسال : ما العلاقة بين النصح
ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادي النيل بـ « الكوثر » .

فترك هو القاتل والراوى وذوى وجهه عنهما وصاح وحده !
« كلام مقطوع عما قبله » . وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم
بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠ .
وتقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفينسا الصليب على الهلال
ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد شديد فاننا ان سمينا الوطن ملة
ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟ » .

فوضع اصابعه فى اذنيه - او لم يضمهما - وأصر وولى واستكبر
استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان
القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل
هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان احدا
تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة
انها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه انه ضمنها فى
صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افندى موسى مؤرخا فى ١١
ديسمبر ...

فهذا الخلق البغيض ونظائره من جرفومته هى التى تملأ
نفوسنا تقراز وعزوا من ادب الجيل الماضى وادبائه ، ومن صناعات
من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لاحقر الصناعات من حرم يرمى
ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده - ارجعهم منها سبهما

اجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وارفعهم فيها اسما
اطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا تقيضان
من شعور بالمعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها
ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ،
وما على المحترف بها باس من السماجة والانتراء ؛ وانما الباس
كل الباس عليه من المروعة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة
لجنة الاغاني فقيدهاها لهم وايينا لانفسنا ان ندخلها في كلامنا مع
انها اهون وجوه النقد التي اخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا
بها لاصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل ان
نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحي ان يسم نفسه
على خلاف رسالته «بنايقة كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعمد الى
نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتقائه فينتحله
جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى يسميتنا مشاهير المذهب
العتيق بالاصنام (١) ثم لا يرى ان عليه بعد ذلك ان يوحى بفرد كلمة اليه
ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا
في مصر كان هو يكتب رسالته في اقاصي الصين او اطراف السويد
ولا ندرى وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون
منها والهزيمة ؟

ولما اراد ان يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره
وظن انه فائننا ابلغ في الفند والسخف فنمى على نشيد شوقي خلوه

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكبرهم ان يقرروا اسما للطبقة التي هم دونها
ليكونوا بذلك اسما للطبقة التي هم دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم
كاد يفلت باطله ونزعت شياطينه وانفجرت بذالته فلذا ذهبت صلح منه التوى
عليك »

من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة
تتغنى بأنها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها
بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

ايه يا خفافيش الأدب . اغثيتم نفوسنا اغشى الله نفوسكم
الضئيلة ، لا هواة بعد اليوم . السوط في اليد وجلودكم لئلا هذا
السوط خلقت . وسنفرغ لكم ايها الثقلان فاكثروا من مساوئكم
فانكم بهذه المساوئ تعملون للأدب والحقيقة اضعاف ما عملت لها
حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرستنا اثنين :
أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يابون الا ان يعدوا شكرى من
دعاة الجديد والا ان يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء
بسخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم ان يرونا نميط الأذى عن المذهب
الجديد وننفي عنه وخامة شكرى . وليس بعيننا أمرهم ولا نحن
نبالى بسخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهمل البصر والاتزان
وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم
لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على اكتافهم رؤسا
وكانما حملوا معدة اخرى لا عقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم
يطالبوننا ان لا نشيم الخير من احد وان لا يكون لنا رجاء فى مخلوق
مخافة ان يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محذور
وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى اسمه !! فيأويحنا لقد اسخطنا والله
هذه المعدات الضاغية وهجنا ثعالها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى
« وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته »
كما يقولون . ولكن لا ضير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب
فانا لا ننكر ان شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لكمه ماذا يقول . ويتطوع
المشفوق عليه للدفاع عنه فبجىء دفاعهم اقتل له من تقلنا .
وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخررون منه
وبتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى
نخلص له النصيح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونفتبط بما
نراه من تملله من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة
فى التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين
فى غير مطمع ؟ ثم اعملناه على شىء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا
عليه فى الزجر فلم يثن الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا
راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى اول عهده بقرض الشعر لا نفعل
الى جانب التشجيع ان ننبه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء
الثانى من ديوانه « انه يطا مفاخر الصنعة بقديمه » وانه « لا يتعهد
كلامه بهذيب او تنقيح ولا يبالى اى ثوب البس معانيه » وعللنا
يومئذ جموحه هذا بانه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج
القديم ولجأجتهم فى احتذاء المال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل
فهو تطوح وتطبيق للعقل يقابلهما من الجهة الأخرى غطيظ المقلدين
لى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٢ فهل يرى أحد ان راي اليوم
لا يتفق مع راي الامس ان صح ان هناك راين ؟ كلا لقد أدبنا
الواجب له وللادب قديما ولكننا اليوم تؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات ان رسالة وردتنا بدون توقيع فيها كاتبها
« انك تتهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير »
وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه أبدا الى هذا
الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالة . على ان كونى مجنونا
لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شىء جل او دق وما اتهمنا شكرى
ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى
كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى اسىء الظن بكل شىء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رايت فى الضياء ظلاما ورايت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الاوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى اذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى اذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى اذنه اليسرى ومن العجيب ان هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من اجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت اعماقه ولا اعنى جنون من لا يحس جنونه بل اعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف اسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء اللكر والامانى) اه .

فهل رايت ايها القارىء أننا فيما كتبناه من شكرى اكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شىء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخيها للقصد وتحريها للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس واوردنا شاهدا على ذلك فى النبذة التى اقتطفناها من « الاعترافات » شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المحاز فى شىء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الفرض والتاويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته من ١٠ .

« ويسمع المحب انقاما والحنانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى اشكالا هندسية بديعة لا تسمع عنها فى كتب

الهندسة ويرى ازهارا خيالية لا يعرفها الباحثون في علم النبات «
فهو يسمع ويرى ما يعلم ان لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله في
وصف جنونه « ولا اعنى جنون من لا يحس جنونه بل اعنى جنون
من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف اسبابه ونتائجه » .

وشكرى قديم العهد بالشیاطين والعفاريت قال في ص ٢١ من
الاعترافات :

« لقد كنت في صفري كثر الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس
المجائز من النساء اسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه
الفصوص تملأ كل ناحية من نواحي عقلي (وحتى صارت) عالما كبيرا
ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولي تحل حيث
اكون . واذكر اني رايت مرة عفريتاً على سطح منزلنا وكان أسود
الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر
الكثيف » .

وليس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد ان كبر وبلغ أشده
كما كان في حداته .

انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفي بعض الاحايين اخاف خوفا شديدا ان يظهر لي ابليس .
فاتلفت كي اثق انه لم يظهر بعد وفي بعض الاحايين اعتقد وجسود
العفاريت والجن كما كنت اعتقد في ايام صفري لقد سمعت البارحة
القطط تعوي وتصرخ مثل عواء (المجائين) او عواء الأرواح الحائرة
المعذبة (التي تتخذ الليل جلباباً ثم تفرغ في ذلك العواء ما تقاسيه
من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام
لم اشك في انها عفاريت من الجن واصابتى رعدة شديدة » .

وتأمل تدقيقه في وصف هذه الأرواح الحائرة التي يذكرها وكيف أنه لا يجد تمثيلا لمواء الفطط - لا عوائها - إلا بعواء المغاريت وكذلك كل صوت في سمعه قال في ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت في ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تاكل الدور قال في ص ٣٤ « اذكر انى رايت مرة حريقا هائلا في جنح من الليل فهيج في قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج اعماقها وجعلت اشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت ارى بريقها وصارت النار تاكل المنازل فتندم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى اوجها نور يزيدنا تسحوبا وكنت احس لفح تلك النار في خيالى وذهنى .. هذه هى المناظر التى (التذها) ومن القريب انى يخيل لى ان هذه المناظر وما تبعته من الاحساس تعين المرء على ان يفهم الحياة ومعرفة مبرها » .

ثم تصور شكرى واقعا له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رايت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكرانى بسوء .. او احدا ينظر الى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وانى لاسىء ظننى الآن بمن سيقرا هذا الكتاب وما رايت احدا ينظر فى ثيابى الا حسبته راى فيها شيئا خفى عنى وما رايت احدا ينظر فى وجهى الا حسبته راى فيه شيئا قدرا وما رايت احدا عابسا الا حسبته يعبس من اجلى بغضا او حقدا وما رايت احدا باسمى الا حسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم اعرف سببه الا خجلت لاجلا شديدا وحسبتنى فرضا لذلك الضحك (ومن اجل ذلك هيرت اعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس الا من عرفت

سبب ابتسامه واحيانا اعرف سبب ابتسامه فلا يمنعنى ذلك من
اساءة الظن به)

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعفاريات كل ما يملأ
ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفرع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رايت فى
الحلم بالرحمة انى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما
ادفع به التهمة فصرت اصيح امام القاضى واقول انا برىء والقاضى
يهز راسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم
رايت بعد ذلك انى اساق للسجن والاعدام انه لحلم يفرع .. انى
لاذكر انى اتهمت (زورا وبهتانا) فى ايام صفرى بسرقة عليسة من
الحلوى ولا ازال اذكر ما نالنى من الفرع ان تكون الحياة كلها تهم
(كذا) باطلة .. على انه من (جنون) الياس والفرع والجبن توقع
ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغي ان تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى ان هذه
التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه ان
يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : « بحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس
منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم اما مجرمون واما ابرياء وهذا نظر
فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام .. اى الناس لم تخطر
بباله خواطر الاجرام ولم يفرع مما يتحرك فى نفسه من حشرات
الشر .. لقد مرت بى ساعات كنت احس فيها تلك اللذة التى تدفع
المراء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء
القائلة الحرارة والمراء فيها كالصحرا الظلمان يليح له سراب الشر
(بضيائه) فيريد ان يروى ظمأه وينقع غلته انا اليوم برىء ولكن
ما يلزمنى وبما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى

نفسى . . . وكنت اشفق على المجرمين واملا لهم قلبى رحمة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رايت فى الحلم مرة انى اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت احس جريه كأنه دبب الحشرات وقد جمد الدم فى مروقى واسودت الدنيا فى عينى وكلما اردت ان اتنفس احسست شيئا يسد مجرى النفس وكنت احس صوتا كأنه صوت اعصابى تنقطع فيحكى صوت تقطع اوتار العود وكنت يخيل لى كان بدا من جليد قد وضعت على ظهري هذه الاحلام التى تمكن الاديب ان يعدم شخصه فى اشخاص غيره وأن يلج الى ارواح الناس وعواطفهم وأن يرحم المجرم كما يرحم النعيس .

وقال فى ص ٦٢ : « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الاحب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرأيت من سلطان الفضاء فآخذت سكيناً وأدنيته من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي ان اضرب نفسى الضربة القاضية فلم تهن على نفسى فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما اتت تلك الليلة ارجأت الانتحار الى ليلة اخرى حتى افكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة . »

وقد فكر فى الانتحار مرة اخرى لسبب هذا خيره قال فى ص ٩٦ :

« انى لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدرى مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا فى اذنى قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض ما يصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الاولى وأن تتجو سليما فوقع يدي الى جانبيه واحسست أن روحى قد سلبت أجل شيء فيها فنظرت الى ما بين قدمي لارى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة لم احسست كان عظامي قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة
فجعلت اعدو من الفيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر
الى المارين وهم ينظرون الى فارسيهم بلحاظ المقت والكره لانى كنت
احسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى ويفهمون سر روحى
التي اهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت ان
ارمى نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التي تفر من اللطام
الى الحمام ثم ذهبت الى البيت .. وخطر لى (ان اتابط سكيننا
او مسدسا وان انتقم من ذلك الشقى فاقتله) ولكن الحزم والجبن
وهما سمرأى ونصيحاى الاحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت اقرض
اسناتى من الفيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات
(الجنون) اهـ

على انه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه
فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكها بعقب هذه المرات .
قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدل بيننا وخفت ان يبدأ اللطام بدائه به فان
المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت اريد ان يخر
مغشيا عليه شها ولكنى خفت ان افقا عينه او ان اصيب احد اعضاءه
بتلف دائم او ان تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة
وبالعقاب الشديد .. كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما
سدت يدى لالطمة ومن اجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا
فمد الى يده بالطام ولكن بخيل لى انه لم يخش ما ختسيت من
العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بانفهمهم
وعين سوداء حمراء زرقاء كانها قوس قزح » .

وقلنا من شكرى انه ابكم فكاننا اخترعنا شيئا وحسب البعض
ممن بظنونا تلقى القول على عواهنه ولا نبالى ابن وقع من الحقيقة
اننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجامه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما ادراهم انه هو القاتل في ص ٣٩ من الاعترافات :
« اتى في خلوتي بنفسى اعد الكلام البليغ والحجج الراجعة
والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون
كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء
وحادثتهم لم اجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم اذا خلوت
بنفسى بعد ذلك اقول كان ينبغي ان اقول لهم كذا كذا فينطلق
لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن اى مزية فى ان يكون المسرء
(عيبا) فى المجالس فصيحاً فى الخلوات ؟ وهذا سبب من اسباب
انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون
حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الامر عنده من قبيل صممت المفكر او الحزون او
قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص . قال فى صفحة ٤٧
من الاعترافات :

« لقد كنت فى صفري كثير الحياء وكنت انظر الى جرة اترابى
من الفلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها واتمنى ان اكون مثلهم .
اذكر ان ابي زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن
وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الفلام وصافحنا وحيانا
(بفصاحة وطلاقة ورشاقة) اعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون
الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنسون » فى شعره
بعد اقراره به وتقريره انه جرع كأسه المرة وانه وصل الى اعماقه
وانه يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين
البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون انهم مجانين

وفي الناس كما أبون حتى على أنفسهم ولكننا عاشرنا شكري
 أعواما طويلة رحالطنا وبلونا ولا نراه بالغ في شيء مما وصف به
 نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه
 وملابسيه . ولا يمكن أن يقال في الرد علينا وفي تبرئة شكري مما
 قرف به نفسه أن « الاعترافات » صاحبها رجل آجر اسمه م . ن
 وإن شكري ليس إلا ناشرا لها فإن هذه الاعترافات ليست إلا طائفة
 من المقالات لا يربطها شيء إلا ضمح المتكلم وقد نشر شكري أكثرها في
 « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على أنها له ثم عاد فجمعها
 في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات أبيات شعر كثيرة
 واردة في اثنتائها وفي الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الأبيات
 هو شكري وربما ذكر اسم القصيدة التي هي منها وقد يعين الجزء
 من ديوانه الذي وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون إلى هذه
 الاعترافات وتصديقها. أنه يجد مصداقها في شعره فكما أنه قال في
 الاعترافات في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره
 « فقد أغرم الانسان بالشر والأذى » وقال :

كل نفس فيها الخير والشر

دواع طويلة الأغصان

وقال معترفا أنا اليوم بريء ولكني ربما كنت في غد مجرما ومن
 شعره

ربما شب بين جنبك للشر

ضرام ما أن له من فناء

انت في اليوم واسع الجاه غص ال

خير لسدن الرخاء رطب الرجاء

خالص الكف من دماء قتيل

أيض الطبع لم يشب برباء

ربما كنت في غد اشعث الطبع
ح لئيم الخصال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو -
طسائر الضغن تاتر الشحشاء
وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل واورنا بلدا من
اعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة
الفادرة » وهي قصة امرأة ارادت ان تسمه نفسها هو :

وهي قد افرغت لي السم في كوبي
وقامت تصر فصر بعبيد
ثم غافلتها وافسرغت كسوبي
فسوق ماء بكوبها منزور
ثم قلنسا من الطعنام بلاغا
وشربنسا سرا من التصريد
ثم جاء اليوم الجديد فنسامت
زوجي الرود نومة القبسور
فصل السم فمله في حشاها
ودهاها من السردى بقيسود

ومنها قصيدة عنواتها « ام اسيرطية قتلت ابنها » وهو ليها
يبرر هذه الجناية لانه فر من الحرب قال وقد نسي انه هو ايضا
جبان حتى في موطن « اللطام »

ايها الخائن الجبان خشيت الـ
موت والموت حادث مقسود

ان اما تعزى ليها قتلت في
قتلك العسا لم يصيها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبله الزوجة الخائنة »
قد قبلتني قبلة مرة
كانها من حملة العسرب
تنهش جساها لم يكن نهزة
لشاحذ الاثياب والمظب
لولا وميض الزاي يقتسادني
يعيلني من سفه المفضب (٢)
جلتها بالسيف امحو به ال
لنب بسلنب رائع معجب

وتأمل في هذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف أنه
يصف الجريمة بأنها رائحة معجبة ، ومنها قصيدة العقاب بالقتل
وفيهما يعتذر المجرم

اطيلوا حياة الجارمين فانها
حياة اذا سسد المطامع عاقر
لقد اخلفتهم بلقة العيش برها
زمانا وحابات الحياة غوان
فبئس حياة المرء والفقر عاكف
عليه واسباب الحياة جرائر
هنا لك انى للفقر لعاذل
وانى له مما يعانيه عاذر

كان كل من يجرم يكون باعته الفقر والخصاصة : وله هذا ذلك
أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبته
فلو كنت بين الناس ربا معزى
ونادوك انى فانك النفس جارم

لألفيت غفرانا لديك ورحمة
فما يغفر الزلات إلا الأعظم
وقوله :

رحمت أسعى كمصحح بأن عنه ال
صحب فردا ذا وحشة واطراح
أو كذى الجرم حين طال به السجن
يفضل الطريق عند السراح
وقوله :

كان هموم المسرء ذنب مراوغ
فيا يؤس مقتول ويا يؤس من نجا
وفى واعترافاته أنه يحلم بأنه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في
شعره

يرى الناس أن النوم أم رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على العظم أسياف نعمة
فاحلام نومي كالبحيم عذاب
كم هد من عزم صليب عذابها
وشيب وراة القلوب فشابوا
ومنها :

وغيرنى عما عهدت جرأتى
فليس الى الحال القسديم ايتى
فلا تحسبن الشر يعنى بتوبة
وان غفر الجرم العظيم متاب
يوافق كل الناس بالفكر شرم
ولقد عابنى انى جرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفسه
وذلك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه في اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء
وكذلك فعل في هذه القصيدة

ظمئنا فخلنا الشر في العيش منهلا
لكن ورد الجسارمين سرايب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبته وبرر ذلك ولم يرفيه مائما
وان بقلبي من جفائك (جنة)
فان رام يوما قتلكم ما تائما

فاسقى جنوني من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تفصيله وما بقى من شك في
ان الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هي صفاته
وميله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في القطر
السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالغنا
الهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ! كيف والطبع
أعرج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظار معكوس يريها
الاشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها !

« ابراهيم عبد القادر المازني »

فہرستیں

الجزء الأول

[illegible]

الجزء الثاني

٧٧	١٠٥٥٤	١٠٥٥٥	١٠٥٥٦	١٠٥٥٧	١٠٥٥٨	١٠٥٥٩	١٠٥٦٠	أدب الضعفاء
٨٠	١٠٥٦١	١٠٥٦٢	١٠٥٦٣	١٠٥٦٤	١٠٥٦٥	١٠٥٦٦	١٠٥٦٧	ترجمة المنفلوطى
٨٤	١٠٥٦٨	١٠٥٦٩	١٠٥٧٠	١٠٥٧١	١٠٥٧٢	١٠٥٧٣	١٠٥٧٤	الحلاوة والنعممة والآنوثة
٩٦	١٠٥٧٥	١٠٥٧٦	١٠٥٧٧	١٠٥٧٨	١٠٥٧٩	١٠٥٨٠	١٠٥٨١	العبرات « قصة اليتيم »
١٠٣	١٠٥٨٢	١٠٥٨٣	١٠٥٨٤	١٠٥٨٥	١٠٥٨٦	١٠٥٨٧	١٠٥٨٨	اسلوب المنفلوطى
١١٥	١٠٥٨٩	١٠٥٩٠	١٠٥٩١	١٠٥٩٢	١٠٥٩٣	١٠٥٩٤	١٠٥٩٥	شوقى فى الميزان
١٢٨	١٠٥٩٦	١٠٥٩٧	١٠٥٩٨	١٠٥٩٩	١٠٦٠٠	١٠٦٠١	١٠٦٠٢	رثاء مصطفى كامل
١٦٦	١٠٦٠٣	١٠٦٠٤	١٠٦٠٥	١٠٦٠٦	١٠٦٠٧	١٠٦٠٨	١٠٦٠٩	رثاء الاميرة فاطمة
١٧٠	١٠٦١٠	١٠٦١١	١٠٦١٢	١٠٦١٣	١٠٦١٤	١٠٦١٥	١٠٦١٦	ما هذا يا ابا عمرو ؟
١٧٧	١٠٦١٧	١٠٦١٨	١٠٦١٩	١٠٦٢٠	١٠٦٢١	١٠٦٢٢	١٠٦٢٣	صنم الالاعيب (٢)

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٦/١٤١٣٢

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

To: www.al-mostafa.com